عبد الكريم العامري

الطريق الى الملح

رواية

٢٠٠٢

الطريق الى الملح

رواية

عبد الكريم العامري

اصدار/ دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ٩٣٦ لسنة ٢٠٠٢

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة/بغداد ٢٠٠٢

تصميم الغلاف: نهلة محمد عبد الوهاب

لوحة الغلاف للفنان صدام الجميلي

بغداد الطبعة الأولى ٢٠٠٢

اهداء:

* الى الأرواح الطاهرة التي ما زالت تحلق في فضاءات الفاو.

(١)

الطريق الممتدة الى الفاو تبدو كخيط متعرج طويل يخترق المدى ويفصل ما بين عالمين متنافرين. قد يوهمك المكان، فثمة حياة في مكان ما هنا. ربما فيما مضى او الآن، لكنك – بالتأكيد- سوف تستسلم للسكون المخيف الذي خلفته جذوع النخل المقطوعة الرؤوس، او كثبان الملح المتلاصقة تحت أشعة شمس آب، أو مواضع الجنود المهجورة وتلال الرصد والسواتر الترابية. هو المكان ذاته الذي تركته من قبل مجبراً، وها آنذا اعود اليه ثانية ومعي صورة صاحبي أحمد الصالح ومفتاح صندوق تركته هناك تحت شجرة سدر في حوز الجبيلة.

الطريق تأكل ساعة من النهار في سيارة يشاركني فيها اشخاص لم ارهم من قبل ولن اراهم بعد ذلك. الراكبان اللذان يجلسان خلفي يتحدثان بصوت مسموع، من خلال المرآة رايتهما، يلملمان الخريف على مساحة تجاعيد وجهيهما، تحدثا كثيراً، كأنهما يذيبان ملل الطريق.

قال الرجل القريب من النافذة:

- بدأت الأرض تخضر.. الأشجار تستعيد عافيتها.

لم يجبه الآخر هذه المرة واكتفى بالتحديق في فاصلة الطريق الممتدة من الحافة الاسفلتية حتى البساط الأخضر الكثيف. كان كمن ينبهني أن أحدق أنا الآخر في المكان ذاته الذي تحدثا عنه.. خلف غابة النخل المقطوعة الرؤوس ثمة بساتين وخضرة، وثمة حياة جديدة بعد جدب دام سنوات. أخذ اخضرار المكان ينساب عبر زجاج نافذة السيارة وبدت كل الأشياء تنزلق ببطء. مسح الرجل حبات العرق عن وجهه بيده المعروقة في اللحظة التي مال فيها رأس الشخص الذي بجانبي على كتفي غافياً.

قال الرجل القريب من النافذة:

- زرعت نخلة برحي قال لي ولدي أنها أثمرت، وأنهم أكلوا منها رطباً أيام الحرب، وأكل الآخرون منها أيضاً...!

فتح الرجل القريب من النافذة عينيه بعدما اصطكت اسنانه مبدياً امتعاضه من الرجل الآخر وقال زاجراً:

- أشك في ذلك..!

اقتربت السيارة من المعامر وبدت الجهة اليسرى من الطريق أكثر اخضراراً بينما انتصب على الجانب الأيمن لوح اسمنتي حمل دعامتين كونكريتين ونقش على صدره بحروف واضحة برونزية تلخيص لملحمة تحرير الفاو.. قرأتها بعدما توقفت السيارة قليلاً عند سيطرة مرورية:

(ايها الزائر أرض الفاو تمهل وأمعن النظر وكن رقيقاً رفيقاً بأرض الفاو فانها الأرض التي سالت عليها دماء ٥٢٩٤٨ شهيداً..)

- ربع ساعة تفصلنا عن الفاو.

قال السائق وهو يدوس على دواسة البنزين مبتعداً بنا عن المكان بينما الرجل الذي غفا على كتفي قد استيقظ داعكاً عينيه بقفا اصابعه وراح يحدق في ساعته.

الساعة تقترب من الحادية عشرة وشمس آب لم تصب حممها بعد لكني أحسست بريح جنوبية تنسل من الفتحة الصغيرة التي تركتها زجاجة النافذة مخلفة دبقاً على وجه.

- الشرجي ممل...!

قال الرجل الذي غفا على كتفي وكأنه يدفعني الى هوة الماضي، تلك الأيام التي كنا نقضي ساعات نهاراتها في ماء النهر. لم يكن نهر الجبيلة عميقاً لكنه كان يغص بنبات الجولان. ننزل الى الماء بدشاديشنا، نضحك لانتفاخها وهي ترفعنا الى أعلى، وحين نغوص في الماء نسمع أزيز محركات السفن وهي تنتقل لنا من شط العرب الكبير. كان جدي يجلس فوق عتبة باب البيت على حصيرة خوص النخل والمهفة المبللة بالماء لا تغادر يده. حدثنا عن رحلاته الكثيرة وعن موانئ تمتد على طول البحر.. حدثنا عن آخر رحلاته الى بومباي قبل أن يقعده حادث سقوطه في غرفة المكائن. كنت أراه سندباداً يجوب البحار حاملا غبار المدن التي وطأتها قدماه ورائحة البحر الذي اغتسل جسده فيه. مرة عاد ومعه قرد صغير بشعر كثيف ووجه مستطيل وذنب كأنه علامة استفهام. ربما اراد بقرده ان يقنعنا – نحن الصغار- انه زار الهند وجاب غاباتها جالبا غنيمته التي اثارتنا اياما طويلة. لا اعرف ما حصل للقرد بعد تلك الايام فركام السنوات ثقيل في ذاكرة لم اقتنص منها سوى فتات احداث.

المعامر صارت نقطة في زجاجة السيارة الخلفية، عن قرب بانت خزانات النفط وبعض بيوت الفاو. الطريق تجرنا الى حيث البوابة الكبيرة للمدينة، مدخلان قوسيان يمر عبرهما طريقا الاياب والذهاب. المدينة تقترب رويدا رويدا. اراها من مكاني في السيارة: ملعب كبير

للألعاب الرياضية مدرجاته ترتفع قليلا عن سياجه الدائري. لافتات صفت بانتظام على جانبي الطريق تتحدث عن المدينة والتحرير والبناء. لم تكن الفاو هكذا حين غادرها اهلها في الحرب، المدينة التي ارتدت لباسها الجديد اشبه بقرية كبيرة بعد ما كانت فيما مضى من الزمان معتقلا كبيرا للثوار الوطنيين، كثيرون سجلوا اسماءهم على جدرانها وآخرون حملوا احلامهم في وطن حر ترف في فضاءاته حمائم الحرية.

عبرنا البوابة الكبيرة ومنها الى مرآب المدينة. قال الرجل القريب من النافذة الى السائق:

- أتوصلنا الى النقعة...؟

هز السائق رأسه موافقا بينما ترجل الرجل الذي غفا على كتفي ونزلت معه.

قالت أمي:

- من الشرق تجيء المصائب.

توقعت ان اسمع منها المزيد لكنها صمتت فأحسست ان وراء صمتها هما كبيرا. عرفت ذلك وانا أعبث في قطع الخوص التي وضعتها في قدر الماء وأخرى نشرتها قريبا منها بعدما صبغته بالقرمز. لم تغضب مني كعادتها واستمرت بعملها في صنع الحصيرة. دارت في رأسي الصغير اسئلة كبيرة بعدما سمعت حديث أمي عن الشرق وعن المصائب. ما الشرق.. وما تلك المصائب؟ اعرف ان المصيبة في موت أحد او اشتعال النار في صرائف القصب او تمرد النهر وفيضانه.

في ليلة صيفية دبقة من زمن مضى صحونا على اصوات وضجيج ينبعث من الخارج ثم راحت الايدي تطرق الابواب، صاح رجل في الخارج:

- لقد فاض النهر.

فيضان النهر مصيبة، وهو يقتحم الابواب ويملأ البيوت ماء. خرج

الرجال والنسوة وخرجنا نحن الصبية معهم. يبدو النهر كقدر فاض ماؤه وكان على الرجال ان يوقفوا تدفق الماء. صار الشارع نهراً. الرجال يعملون تساعدهم النساء ونحن نلعب فرحين بالماء الذي زار بيوتنا. تغوص سيقاننا فيه حتى الركب غير آبهين بما سيحدث. لا أعرف لم صرخت أمي وهي ترى الماء يدخل غرف البيت وقد سمعت منها ذات يوم ان الماء في الحلم يعني الخير الوفير. هل صرخت أمي من خير يقتحم علينا البيت بعدما أكل القحط والفقر من أجسادنا الكثير...؟

عند بزوغ أول خيط للفجر أنهى الرجال عملهم بعدما هدموا حائطين من خربة قريبة مستخدمين ترابهما لعمل السدة الترابية، ولأن ارتفاع السدة لم يزد شبرين عن مستوى ماء النهر فذاك يعني ان الرجال سيكونون متيقظين لحدوث أي طارئ. توقف الماء.. ويا (أرض ابلعي ماءك). توقف الضجيج لكنهم لم يامنوا الهدوء الذي عم بعدما باغتهم النهر بتمرده في ساعة متأخرة من الليل. عند الضحى، انخفض منسوب الماء بمقدار اصبعين، ومنعنا – نحن الصغار- من أن ندوس فوق السدة الترابية. ومنعنا أيضاً من الخروج الى الشارع الزلق فالأفاعي التي خلفها الفيضان ما زالت تنتشر في المكان.

كانت كلمات أمي ترن في أذني كناقوس من الصعب ايقافه. وثمة سؤال يؤرقني عن المصائب التي تجيء من الشرق. نشف الشارع من الماء والوحل ولم ينشف رأسي من ذاك السؤال حتى فك جدي ذات عصر طلاسمه، وبعدما احتسى شاي العصر وضع عصاه جانبا وراح يحدثنا عن مجاميع الدقاقة:

- دائما يجيئون من الشرق. يعبرون الشط من القصبة. لم تكن السلطة آنذاك قادرة على ردعهم فكانوا يعيثون في الارض فسادا. قيل إنهم وطأوا دار امرأة تعيش وولدها. وحين همّ أحد افراد الدقاقة ان يحمل صندوقاً وضع فيه كل حاجيات البيت ولم يستطع صاحت المرأة لولدها: (ساعد خالك في حمل الصندوق).. توقف اللص وغادر بيتها دون ان يأخذ شيئاً!

هذه الرواية سمعتها من كثيرين. لم اقتنع بصحتها وربما الدقاقة هم من اشاعوا هذه الرواية كي يثبتوا للناس مروءتهم وحسن اخلاقهم لكن ما سمعناه عن سرقات المواشي والبيوت يفند الرواية.

وعرفت ما كانت تعنيه أمي بالمصائب التي تجيء من الشرق، فخلف غابات النخيل التي تمتد على طول شط العرب من الجهة المواجهة للمدينة تترصدنا افاع سامة.. ما ذاك الاخضرار الا غطاء يخفي نارا تتحين الفرص لإحراق وجوهنا.

• النقعة: مرسى السفن والزوارق في الفاو.

• الدقاقة: مجاميع من اللصوص انتشرت في بدايات القرن الماضي.

• القصبة: المنطقة قبالة مدينة الفاو من الجانب الآخر لشط العرب الكبير.

(٢)

كمب البي بي سي يغفو بهدوء على نهر صغير في منطقة الهاتف، تظلله الاشجار من كل اتجاه. كرفانات شيّدت بانتظام يحيطها سياج حديدي ينتهي برؤوس مدببة وبوابة يقف عليها حارسان بلباسين ازرقين كتبت على قفاهما الحروف الانجليزية الثلاثة (B.P.C) مختصر لشركة نفط البصرة.. في أحيان كثيرة نحتطب قرب سياج الكمب ونتلصص على الرجال الحمر والنسوة الشقراوات يرمون بأجسادهم في حوض ماء كبير اتخذ مكاناً وسطاً في الكمب. لم نر مشهداً غريباً كهذا. ولم نحدث أحداً من أصدقائنا عنه كي لا يفسدوا علينا متعة التلصص. ذات يوم حين خلا المكان من أولئك الرجال والنسوة قال صاحبي أحمد الصالح وهو يشير الى حوض الماء:

- لنذهب ونسبح هنا.

استحسنت فكرته ولكن: كيف نعبر السياج؟ حاولنا جاهدين أن نجد منفذاً، لم تكن من وسيلة الا من خلال النهر الذي يحد الكمب من جهته الشمالية. أعرف صاحبي أحمد الصالح ان اراد شيئاً فعل. خلعنا دشداشتينا وكورناهما فوق رأسينا وبدأنا العوم باتجاه الكمب وصلنا الحافة الشمالية بعد وقت قصير وجهد بسيط. تشبثنا بالدغل وصعدنا التلة الترابية بحذر شديد. تفحصنا المكان جيداً وبعد ان تركنا ملابسنا على التلة نزلنا الى الجهة الأخرى. صوت موسيقى ينساب من أحد الكرفانات اختلط مع صوت جهاز التبريد. لم نمش على الطريق المبلطة فسخونة الطريق كافية ان تبخرنا! اتخذنا الطريق الترابية مسلكاً.. بضع زجاجات فارغة وعلب ملونة في الارض راح صاحبي احمد الصالح يجمعها في مكان واحد. زجرته بخوف:

- ما جئنا لأجل هذا.

قال باسماً:

- نأخذها في طريق العودة!

سبقته الى حيث حوض الماء. دائرة غلفت ببلاطات ملونة. سلم يؤدي الى الماء. ضحكت في سري فقد تعودت ان ارى السلم يؤدي الى السطح لكن هذا يؤدي الى القعر!

تشبثت بحديد السلم فأحسست بسخونته. ألقيت جسدي في الماء، كان دافئاً. غصت في القاع، لم يكن ثمة طين هنا، البلاطات الملونة نفسها التي شاهدتها في حافة الحوض موجودة هنا في القاع. لا أسماك صغيرة ولا ضفادع. كل شيء بدا نظيفاً وربما أنا الوسخ الوحيد هنا...!

قفز صاحبي أحمد الصالح في الحوض فصفع الماء الجدار الدائري، غاص فرحاً رافعاً ساقيه في الماء بحركات بهلوانية. غصت معه وفعلت ما فعله. شيء ما يجعلني أقلده في كل شيء. رحنا

نتبارى في الدوران والقفز. كل شيء بدا هادئاً عدا زعيق صاحبي أحمد الصالح وصوت الموسيقى الذي لم ينقطع. غاص مرة أخرى، تأخر في القاع حتى ظننت أنه ضاع فيه. غصت خلفه فرأيته ممسكاً بعجلة مثل عجلة الدراجة.. حركها يميناً، سحبها بقوة. ساعدته في ذلك ونجحنا في انتشالها من مكانها غير آبهين للتجويف الذي خلفته العجلة. تجويف دائري ظل يبتلع الماء رويداً رويداً حتى بدأ الجزء السفلي من سلم الحوض بالظهور. لم نشعر به ولم نره الا بعدما اصبحت أقدامنا تطأ القعر ثم خلا الحوض من الماء تماماً فعرفنا اننا وقعنا في ورطة لا خلاص منها الا بالعودة من حيث أتينا.

أحدهم يقترب من الحوض، سمعنا وقع خطاه، التصقنا بالجدار الدائري الساخن. وقع الظل في القاع وصوت في الأعلى:

- أووووووووه...!

ضحك صاحبي أحمد الصالح فأطبقت كفي الصغيرة على فمه. رطن الرجل الذي في أعلى الحوض بكلمات لم نفهمها الا أنها توحي بأنه يستنجد بالآخرين.

- سيشبعوننا ضرباً..

رددتها مع نفسي في اللحظة التي رفعت فيها كفي عن فم صاحبي. ازدادت اصوات وقع الخطوات. وخيمت الظلال على قعر الحوض، أستطيع الآن ان أخمن عدد الرجال الذين فوقنا. تعالت القهقهات. ضحكنا معهم. عليهم.. ضحكنا كثيراً حتى لم يعد يسمع في المكان الا صوتنا. رددت حافات الحوض صدى ضحكاتنا. انبرى واحد من الرجال وصاح بعربية واضحة:

- اخرجوا يا ملاعين لنعرف كيف شربتم الماء!

نظرت الى صاحبي احمد الصالح باندهاش وهمست في أذنه:

- أيظنوننا شربناه...؟!

ضحك صاحبي ورد بفتور:

- لا عليك. سأبول لهم مقدار ضعفين!

- أجننت...؟

صاح الرجل الذي يتحدث العربية:

- هيا.. اخرجوا..

كانوا يظنوننا أكثر من اثنين. مشى صاحبي احمد الصالح وتبعته. لا اعرف ما الذي يدور في خلده الا انني اشعر انه سيأتي بما يثيرهم.. في منتصف دائرة الحوض بدأ جسده يهتز بحركات بهلوانية، صار يقفز ويدور ويمشي على يديه محدثا أصواتا غريبة مثيرا ضحك الرجال والنسوة الذين تجمعوا ليروا فصلا كوميديا لم يروا مثيلا له طوال مدة مكوثهم في الكمب.

طلب منا الرجل الذي يتحدث العربية ان نخرج وأشار الى السلم. صعد صاحبي أولا وصعدت خلفه. لم أكن أخشى ما نناله من جزاء على فعلتنا قدر ما اخشاه مما تخبئه اللحظات القادمة من فعل يقوم به صاحبي أحمد الصالح أكثر مما فعله في حوض السباحة. لم أجد وقتا كافيا لتأنيب نفسي وشعرت أني محاصر بين رجال لا اعرفهم وصاحبي الذي سبقني الى منتصف السلم والأهل الذين كثرما حذّروني من مرافقته.

كان جدي يسميه (الطنطل) وامي تسميه معتوها. أما نحن اقرانه الصغار فنسميه (الجني)، فهو سريع الجري: ان ركض فلن ترى له ساقا. وان غطس في النهر التجأت كل الضفادع الى البر. وان نام فشخيره يسمع عن بعد عشرين فرسخا. ذراعاه كعرجونين ربطا بخيط في كتفيه. ساقاه مثل محراثين اشبعا نارا.

لم يبق من سلم حوض السباحة الا درجة ويصل صاحبي الى السطح قبل ان تنزلق احدى ساقيه لتدك راسي وترميني في القاع على البلاطات التي بدأت تسخن.

صحت به غاضبا:

- احترس يا جني. كدت تكسر ظهري!

لم يجبني. أكمل الصعود ورحت أراقبه من القاع وهو يقف منتصبا بين الأجساد الطويلة لرجال تحلقوا حوله وعلى طريقته المعهودة بدأ ثانية بحركاته البهلوانية يشجعه في ذلك تصفيق الجميع.

لم يعرني أحد اهتماماً. حملوه بعيدا، لا أدري الى اين.. انتهزت الفرصة واسرعت راكضا باتجاه التلة الترابية، وبينما كانت الضحكات تأتيني من بعيد. كنت قد وصلت الى الجانب الآخر من سياج الكمب.

لن يفلت احمد الصالح هذه المرة من عقاب ولن تتشفع له حركاته البهلوانية وألاعيبه. النهار انتهى ولم يأت. فكرت في أن أسأل عنه في مركز الشرطة ولكنني ترددت خشية ان يكون قد أخبرهم عني، وربما أضاف كعادته الى مغامرته أشياء لم نفعلها. جلست عدة ساعات منتظرا إياه في كتف النهر، أتأمل الضفادع وهي تقفز بمرح في الماء واعداد الأسماك الصغيرة متجمعة حول قطعة خبز طافية تقضمها بأسنان ناعمة. الريح القادمة من سطح ماء النهر تثير رائحة خانقة... كنت قد علّقت دشداشة صاحبي على الحائط الطيني منتظرا معجزة عودته سالما من الكمب او من مركز الشرطة قبل ان اشعر بيدين تدفعانني الى النهر. ولأن المسافة التي تفصل ما بين الماء والجرف تزيد عن ذراعين سقطت في الوحل وغاصت مقدمة رأسي فيه بينما راح الجني يعيد حركاته البهلوانية كما فعلها من قبل. غضبت أولا، ثم اصابتني الدهشة وانا اراه بلباس غريب: قميص أصفر نقشت عليه صورة لامرأة خلاسية. وبنطلون كاوبوي قص بغير انتظام ونظارة سوداء.. صاح بأعلى صوته:

- أما زلت تنتظر...؟

- آخ أيها الجني. دشداشتك هناك خذها وانصرف،

- انصرف...؟ الى أين؟

- حيث لا أرى وجهك.

- أنت زعلان اذن.

- ...

قفز احمد الصالح الى النهر بلباسه الغريب وراح يسبح في الطين حتى غدا قطعة طينية لا يظهر منه الا أسنان بيض. لا أعرف كم ضفدعا داس وهو يتدحرج في الطين قبل ان يقف صامتا واضعا احدى يديه على رأسه والأخرى تركها سائبة تتحرك الى أمام وخلف وكأنها ربطت بلولب مرن. وقف كتمثال دون حراك. شفتاه المنتفختان تثيران الضحك كما يثير مظهره الأسى. صحيح أني حنقت عليه لكن هناك إحساسا شفيفا يشدني اليه.. نزلت الى الماء وبدأت أغرف بكفي لأصبه على التمثال. صار أكثر لمعانا وبريقا كلما سقطت عليه رشقة من الماء. اية قوة تجعل هذا الجني جامدا هكذا...؟ تخلّصت من دشداشتي ونقّعتها في الماء الذي غدا خابطا. مرة وأخرى ثم أنظف التمثال بها. برغم الوحل الا أنه لم يرمش لأحمد الصالح جفن، ولأني أعرفه جيدا مذ جاء به عجوز الى بيت المختار بعدما احترق كوخ والديه بمن فيه.. ففقدهما لما تحملته وتحملت مقالبه. فأحمد الصالح قد تربى في كل بيوت المحلة وفي الوقت الذي يتناول وجبة الغداء في بيت هنا.. فأنه يتناول وجبة العشاء في بيت هناك وينام في آخر.. وآخر.. وهكذا صار ابنا لكل العائلات.

ضوء القمر قد اضفى على جسد التمثال بريقا بانت من خلاله كل النتوءات والتجاويف في ذلك الجسد الهزيل. لم انته من غسله. شعرت بالضيق من تصرفاته التي اجدني متورطا فيها. فكرت في ان اتركه واعود الى البيت ولكني على يقين أنه سيمكث الليلة بأكملها في الطين دون حراك.. ذات يوم قال لي: (ان لم تأت بجديد يبهرني فلن استجب لك) فما الجديد الذي آتيه به كي يبهره ويخلصني من ورطة تمثال الطين هذه؟

لابد أن يكون مستوى الفكرة موازيا لما يفكر به هو.. والا لما استطعت أن أخرجه هذه الليلة من الوحل. ابتعدت عنه خطوات ثم عدت راكضا باتجاهه منتزعا قدمي من الطين بصعوبة. دفعته بقوة فانزلقت يداي على جسده الموحل واستطعت أن ارميه عند حافة

الماء. أحدث سقوطه في الماء صوتا غريبا. نهض بتثاقل ثم قفز قفزة جعلته في منتصف النهر وكما فعل في حوض الكمب راح يرقص ويغني بصوت عال مزّق عباءة صمت المكان. تجمع الناس. رجال ونساء. صاح رجل حمل بيده فانوسا رسم ضوؤه خطاً متعرجاً في الماء:

- ماذا يفعل هذان المعتوهان في وقت كهذا.؟

اجابته امرأة شدّت عباءتها حول خصرها غاضبة:

- انهما يفسدان أولادنا.

قال آخر:

- اتقِ الله يا امرأة. أحمد الصالح ابننا جميعا.

- لنعاقبه اذن.

- ليس قبل أن نسمع ما دفعه لهذا الفعل.

صاح أحمد الصالح من أسفل النهر:

- تعثرت قدماي فانزلقت في النهر.

- وأنت...؟

- غابت عن لساني الكلمات. تلعثمت. لم يكن لدي العذر الذي أقنعهم به. أقول الحقيقة واكشف امر صاحبي. سوف يتهمني بالجبن ويعدني غير جدير بصحبته وقبل ان انطق بحرف صاح أحمد الصالح:

- استنجدت به فخذلني!

- حمدت ربي انه قال (خذلني) ولم يقل كلمة أخرى عندها تحول سخط الجميع الى سورة ضحك متواصل وغدت حكايتنا على كل لسان وصرنا مثار سخرية الجميع.

* * *

(٣)

طـوال السـنوات التـي عاشـها معنـا احمـد الصالـح لـم أرَ أحـداً مـن أهلـه سـأل عنـه. أيعقـل ان يكـون دون اهـل. العجـوز الـذي جـاء بـه الـى بيـت المختـار توفـاه الله ولـم يتـرك خبـراً يوصلنـا الـى اهلـه. فـي بـادئ الأمـر لـم نكـن نهتـم لأمـر مثـل هـذا مـا دام احمـد الصالـح يلقـى الرعايـة مـن الجميـع، ولكـن لا بـد للمـرء ان يعـرف أهلـه ويصـل رحمـه. لـم يكـن اسـم (الصالـح) الـذي اقتـرن باسـمه يـدل علـى عائلـة أو أهـل انمـا كان صفـة أطلقـت علـى والـده لصـلاح اخلاقـه كمـا أخبرنـا المختـار فيمـا بعـد وبهـذا انقطـع آخـر خيـط يوصلنـا الـى اهلـه.

مرة قلت له حذراً:

- ألم تسأل عن اهلك؟

أجابني ببرود دون ان يرفع راسه عن الأرض:

- ألستم أهلي ...؟

- ربما لك أعمام واخوال.

- أعمامي أنتم واخوالي.

لـم اتحـدث معـه بعـد ذلـك فـي موضـوع كهـذا كـي لا اضـع حاجـزا بينـه وبيـن اهـل المحلـة. لقـد أحـب المدينـة والنـاس وكثرمـا سـمعته يـردد بيـن حيـن وآخـر أنـه فـي الفـاو ولـد وفيهـا يمـوت وعندمـا خاطبتـه ضاحـكا:

- لا احسبك تموت في الفاو..

قال بإصرار لم اره فيه من قبل:

- حتى لو راودني عزرائيل في آخر الدنيا سأطلب منه فرصة ان يميتني فيها .

ضحكت وضحك معي.. وبدأت الأيام تحفر اخاديدها في عمرينا وتجر السنوات اثقالها كأنها قطار عتيق.. وفي كل يوم أزداد تعلقا بهذا الجني حتى أضحى الناس يسألونني عنه أو يسألونه عني حين لا يجدون أحدا منا.

بدأت المدارس تفتح أبوابها من جديد بعد صيف متعب.. دخلت أنا المدرسة، وتخلف عنها احمد الصالح لأنهم لم يجدوا أوراقا له. عرفت ذلك بعدما وقفت بجانب والدي وأحمد الصالح في جانبه الآخر في غرفة مدير المدرسة. وقفنا نحن الثلاثة قبالة المدير الذي راح يدقق في أوراقي مرة أخرى..

رفض أن يقبل أحمد الصالح ولم تفد توسلات والدي.

قال والدي موجها كلامه الى المدير:

- أنه ولدنا أيضا.

- الأوراق تثبت ذلك؟

- أية أوراق؟

- شهادة الميلاد.

رد والدي بفطرة جنوبية:

- هو ذا أمامك وتستطيع ان تقدّر عمره!

أجابه المدير:

- لا بد من الأوراق. التعليمات هكذا.

لم يجد والدي وسيلة لإقناع المدير الذي أصرّ على تنفيذ التعليمات فاكتفى بالقول: الله كريم!

ترك حديث مدير المدرسة مع والدي أثرا مؤلماً في حياة صاحبي أحمد الصالح. فقد سمع الحديث كله. وعرف أن لا قيمة له دون أوراق. في

الأيـام التاليـة كان يقضـي الوقـت وحيـدا بعـد ان إلتحـق كل أولاد المحلـة بالمدرسـة. وتغيّـرت حياتـه ولـم يعد ذلـك الولـد الشـقي المشـاكس. لـم يعد ذلـك الجنـي الـذي تـراه فـي كل مـكان وفـي وقـت واحـد! صـار أكثـر هـدوءا وصمتـا، وبـدت الشـكوك تنـال منـه، والأرق يهـد قـواه، فهـو وان كان الصبـي ذو السـت سـنوات الا أنـه يـدرك كل شـيء. كلمـا التقيـت بـه شـعرت بألـم الـروح الـذي يعتصـره. وبعـد أيـام حيـن عـدت مـن المدرسـة بحثـت عنـه فـي كل مـكان فلـم أجـده. سـألت عنـه كل الجيـران لكنهـم لـم يـروه.

مـر يـوم، وآخـر. وثالـث، ولـم يعـد الـى بيتنـا، أو الـى أي بيـت مـن بيـوت الجيـران. مـر يـوم رابـع وخامـس ولـم أجـد لـه أثـرا. بـدا النـاس بالسـؤال عنـه، وغيابـه أحـدث فراغـا كبيـرا عنـد الجميـع. وصـارت حكايتـه علـى كل لسـان. لـم نتـرك مستشـفى أو مركـز شـرطة الا وسـألنا فيهـا عنـه. قـال أحـد الصبيـة:

- شاهدته قبل خمسة أيام عند أطراف المدينة..

وقال آخر:

- شاهدته يسبح في الشط الكبير.

قالت امرأة:

- أتمنى أن لا يكون عبد الشط قد أخذه منا!

كثـرت الحكايـات حـول اختفـاء صاحبـي أحمـد الصالـح، حكايـات كثيـرة رسمتها مخيلـة النـاس وزيّـدت عليهـا ألسـن أخـرى. حاولـت أن أجـد خيطـا واحـدا يربـط بيـن تلـك الحكايـات فلـم أجـد مـا يجعلنـي أن اصـدّق واحـدة منهـا. قـال أحدهـم:

- أنه التحق بالغجر. قوم جوالون لا مكان لهم. يختطفون الصغار.

لكـن أحمـد الصالـح لـم يكـن صغيـرا، ولـم يقـل الـراوي أنهـم اختطفـوه انمـا قـال التحـق بهـم وهـذا يعنـي أنـه اسـتاء مـن أمـر مـا وهـرب مـع قـوم غربـاء.

قال الراوي:

- حين شاهد أحمد الصالح الغجرعند أطراف المدينة اتجه نحوهم وربما طلب الالتحاق بهم، ولأنهم لم يمكثوا الا يومين، فاغلب الظن أنه استمتع باللهو معهم وود مرافقتهم. هو أكثر الصبية حبّا للهو والمتعة والغناء. وربما سمع الغجر صوته وهو يغني وراق لهم أن يكون نديما في جلساتهم.

لكن: أما كان عليه ان يخبرني بذلك وهو الذي لم يخفِ عنّي سراً؟ لم أصدّق هذه الرواية أيضا، ولا الرواية التي تقول (أنه ذهب للبحث عن أعمامه وأخواله) وهو الذي كان يردد (أعمامي أنتم وأخوالي).

إسبوع مرّ ولم يظهر أحمد الصالح، ولم يأت خبر عنه. تغيّبت عن المدرسة ورحت أبحث عنه في كل مكان كنا نرتاده، راودتني فكرة أن يكون قد كرر فعلته في كمب البي بي سي أو راق له أن يزور أولئك الرجال الذين ألبسوه قميصا أصفرا. لم أستطع أن أخبر أحدا فيما أفكر فيه خشية أن أفضح أمراً أخفيناه على الجميع.

- لا بد من الذهاب الى الكمب.

حدّثت نفسي ولكن: أسأل من عنه هناك؟ حتى وان وجدت شخصا أسأله فبأي إسم يعرفون صاحبي الجنّي وهو الذي يتخذ في كل مقلب اسما جديدا.؟ لم أجد وقتاً كي أجيب عن تساؤلاتي فقد قادتني قدماي ذات ظهيرة الى باب الكمب الحديدي. وقفت أمام الحارس الضخم فانعقد لساني. صاح بي بصوت خشن وعيناه تقدحان شرراً:

- أنت.. ماذا تفعل هنا؟

إلتفتّ خلفي راصدا طريقا للهروب. ثم صاح بصوت أكثر حدّة:

- ألم تسمع.. أخاطبك انت؟

أمسكت زمام لساني بقوة واستجمعت قواي محاولاً الإجابة بصوت مسموع لكن الكلمات راحت تدور في حلقي غير راضية في الخروج قبل أن أتقيأها حرفا حرفا:

- أ..أ..أبـ..أبحث عن..

زجرني بقوة قبلما أكمل اجابتي:

- لا شيء يفيدك هنا. اذهب وابحث هناك في تلك القمامة.

- أ.أ.. ألم ترَ صاحبي...؟

- صاحبك...؟

خرجت من فمه ضحكة مدوية. استغربت أن أرى البرميل الذي أمامي يضحك. لا أعرف من أية فجوة خرج ذاك الصوت الرعيد.. ضحكت في سرّي دون أن يبدو منّي شيء من السخرية أو الاستهزاء.

أجبته بعدما استعدت أنفاسي:

- نعم صاحبي. ولد كالقهوة!

قال والضحكة ما زالت في حلقه ساخرا:

- كالقهوة أم كالشاي؟!

انتابتني موجة ضحك لا لإجابة الحارس انما لشكله الغريب، وفمه الذي يبدو كبالوعة دون غطاء، وبطنه المنتفخة وجزمتيه اللتين ابتلعتا نصف ساقيه. زجرني بقوة وهو يحفر الأرض بمقدمة الجزمة كثور هائج.

- اغرب قبل أن اعلّقك في السياج!

أحمرّ وجهه واصطكت أسنانه غاضبا نافرا آخر كلمة من جملته الزاجرة ابتعدت عنه قليلا وانا حانق عليه، باغتّه بحجارة التقطتها من الأرض وبالتفاتة سريعة وجهتها الى صدره العريض. لم يستطع تحاشيها فارتطمت به دون أن تحدث أثرا. ركضت وصراخه يتبعني:

- عليك اللعنة يا ابن الـــ...

لم أتوقف أو التفت الى الوراء. كاد قلبي يقفز من صدري بعد ان تلبسني الخوف. ماذا لو وقعت بيد هذا الرجل البرميل...؟ ربما سيعلقني في سياج الكمب كي يثبت لرؤسائه أمانته واخلاصه.

ركضت ومعي يركض صاحبي أحمد الصالح. يركض في داخلي. في رأسي. يوبخني:

- لا تكن خوّافا. كن رجلاً.

أية رجولة تقف أمام هذا الوحش وتتحداه...؟ وأنا أقف أمامه أغرق ظله جسدي وهذا كافٍ لأن أهتز مثل غصن في عاصفة. ما زلت أجري.. وأجري.. حتى لم تعد ساقاي تحملانني. سقطت على الأرض وانا أتصبب عرقا. لم يبعدني الخوف عن صاحبي. تذكرت كلماته وأنا أقول له (إنك جنّي أصيل) ردّ بفتور لم أعهده فيه من قبل:

- حتى ان كنت أصيلا فالجنّي مكانه الخرائب والمقابر.

- هذا ان كنت جنيا حقيقيا.

قال:

- حين أشعر بالضجر لا أجد مكانا أفضل من مقبرة.

- المقبرة...

دقت الكلمات ناقوسها في رأسي كسيخ يخرج من صدغي:

- اذن لأذهبن الى المقبرة.

بعدما استعدت أنفاسي حملت جسدي باتجاه المقبرة. ولأنها لم تكن بعيدة عن المكان الذي انا فيه. لم استعجل الخطى. مشيت وئيدا واجتزت نيسما غطّته شجيرات شوكية يؤدي الى الطرف الشمالي من المقبرة. وصلتها قبل الرابعة عصرا بقليل والشمس لما تزل تجلد المكان بسياط لهيبها. قبور متناثرة توزعت على التلة الترابية. قبور تراب وطابوق ورخام عالية وناصية. شواهد أكلها الزمان ولم يبقَ منها الا حروف متباعدة. أصوات الفواخت تسمع من بعيد وتضفي على المكان طقسا غرائبياً موحشاً. سرت بحذر شديد خشية أن يبتلعني قبر قديم. ويتحقق ما سمعته من حكايات عن قبور تبتلع الأحياء. دائما الموتى يبحثون عن أحياء يؤنسونهم! هكذا كنت أفسّر تلك الحكايات حتى ظننت أن هناك طريقا سالكة ما بين عالمي الموت والحياة. مرة غاب أبو شكرية العتّال.. غاب أياماً، قلبنا المقبرة رأسا على عقب لم نرَ له أثراً لكننا بعد ثلاثة أيام وجدناه جثة طافية في الشط الكبير.

حاولت ان أبعد تلك الهواجس عني واقطع كل الخيوط التي تشدني بقوة

الى أيام خلت. اتكأت على قبر قريب وصحت بصوت عالٍ:

- أحمد الصالح يا جنّي. ان كنت تسمع فأجبني!

انتظرت قليلا فلم أسمع صوتا، ولا صدى لصوتي الذي امتصته جدران القبور الساكنة الصامتة. كررت النداء ثانية وانتظرت فأحسست بخشخشة لا تبعد عني كثيرا ما بين قبرين حديثين. صحت مرة أخرى:

- أهذا أنت يا جنّي؟

لم يجبني أحد. ازدادت الحركة وأعقبها غبار خفيف غطى فضاء القبرين. تحركت خطوتين ومددت قامتي فلم أرَ شيئا. التقطت حجرا تحسبا لما قد يحدث. كل شيء يغفو بصمت طويل. عادت غيمة الغبار ثانية تغطي فضاء القبرين.. تقدمت متيقظا. خطوة إثر خطوة.. تمتمت بكلمات كنت حفظتها عن أمي. قالت انها تبعد الشياطين وتطيل الأعمار وتطرد الحسد.. رددتها متبعثرة دون أن أعي ما تعنيه خارطة الأسماء التي أرددها.. قدّمت وأخّرت فيها. لا يهم ذلك. فالذي يهمني الآن أمر غيمة الغبار التي أمامي وكأنها تنبعث من عالم آخر. عالم سفلي خليط من الأرواح المجنّدة والمعذبة. دنوت ببطء حتى التصقت بأحد القبرين. وقفت على أطراف أصابع قدمي، وحدّقت فيما بين القبرين وراعني ما شاهدت: هو ذا صاحبي أحمد الصالح، الجنّي، ممددا يعبث بيديه في الأرض مثيرا الغبار. ارتخت أصابعي وسقط الحجر من يدي دون إرادة مني. أسرعت نحوه متجاوزا القبر فتوضح المشهد: عينان غائرتان، شفتان متيبستان، ووجه ذابل أصفر. صرخت به:

- لِمَ لَمْ تجبني؟

فتح عينيه بتعب شديد، وأشار بيده إن احملني. فهمت انه لم يعد قادرا على الكلام ولا النهوض. أمسكته من تحت ابطيه ورفعته عن الأرض فبدا هزيلا، خفيفا.. حملته على قفاي وعدوت به مجتازاً القبور الناصية والعالية والتلة الترابية. لم أسمع صوتا له وهو على قفاي. وصلت الى النهر وقذفت بجسده الهزيل الى الماء. قذفت جسدي خلفه. طفا جسد صاحبي أحمد الصالح كالفلّين في الماء. راقبته عن كثب. رأيته وقد فتح فمه وراح يعب الماء حتى ظننت أن بطنه امتلأت

وسيخرج الماء من أذنيه وعينيه.

بدأت الروح تدب في جسده، وتحركت قدماه جاذفا الماء تاركا بثور الزبد على وجه النهر. خلع دشداشته وغمسها في الماء. لم أتحدث معه. اكتفيت بمراقبته.. غاص والدشداشة في الماء. غاص دقائق معدودات ثم قام مخترقا صفحة الماء. التفت اليّ قائلا وقد امسك سمكة صغيرة بيده:

- عليك ان تستخدم أغرب الوسائل للصيد.

- عليك ان لا تعطي الموت فرصة لاصطيادك!

صمت وكأنه يقلّب كلماتي في رأسه ثم قال:

- شيء ما جرّني الى المقبرة، لم أستطع الإفلات منه كأنه صوت أمّي ناداني من الأعماق!

- هذا جنون. كان عليك أن تخبرني.

- لم أجد وقتا.

- أتريد أن تغيظني في موتك؟

- خير من ان أغيظك في حياتي.

- أحمق!

امتزجت دموعي بقطرات الماء الذي راح يرشقني به. بادلته الرشقات والصياح وأنّبت نفسي حين قلقت عليه فمثل هذا الكائن لا يمكن أن يشكّل غيابه قلقاً.

بدأت نوبة ضحكاته من جديد كأنه يحاول تعويض ما فاته في الأيام التي غاب فيها من ضحك ولعب. راقبته وهو يغوص في الماء أو يتعقب ضفدعا أو سمكة صغيرة انفلتت من يديه.. الماء يقترب وحمرة الشمس صبغت فضاء الأفق البعيد وخضّبت سعفات النخيل بلون طيفي وبانت الجذوع كأعناق مدّت الى فوق. مشينا في الطريق الترابية بملابسنا المبللة ووجهينا المزرقين اللذين امتصا سخونة شمس الظهيرة كلها.

مشيت الى جانبه. لم يتحدث معي، ولا أنا.. كنا نلمّ شتات الكلمات ونعد خطواتنا. لم ألتفت اليه كي لا أثيره بالتلميح الى شيء ما. أشعر بأنفاسه قريبة مني وصوت قدميه وهو يسحبهما على التراب. هذا الكائن الذي يسير الى جانبي: ماذا أسمّيه؟ كلما حاولت اختراق عالمه أجدني بعيدا عنه. قبل لحظات كان يلعب ويضحك ويصرخ. حتى خيّل لي أنه لن يسكت أبداً، وها هو ذا الآن يقبع في صمت غريب، صمت لم يبدده الا صوت طائر الطيطوى الذي حلّق قريبا منا. رفعت رأسي وحدّقت في الطائر راصداً حركته صعودا ونزولا. قال صاحبي أحمد الصالح:

- لا تصدّق كل ما قالوه عن هذا الطائر.

لم أجبه. اكتفيت بمتابعة طيران الطائر. وأردف ثانية:

- طائر جميل مثل أي طائر. بعضهم يقول إنه مصدر شؤم. تلك خرافة. نحن أشأم منه عليه!

في لحظة مثل لمح البصر صار يقلّد صوت الطائر وحركته فاردا ذراعيه مثل جناحين. قافزا أمامي بحركات متموجة. دار حول نفسه عدة مرات. موجة من الجنون قد اعترته. لا أعرف كيف يفكر هذا الجني. انتابني حزن شفيف دبّ في أعماقي وأنا أرى هذا البهلوان الذي كان قبل ساعات جثة هامدة. تبعته راكضا ودونما شعور رفعت ذراعي مثله. مثل جناحين. صرت أقلّده في حركاته وصوته. دائما يأسرني بتصرفاته الغريبة، تدخلني عالما غرائبيا غير عابئ بتوبيخ الأهل وسخرية الآخرين مانحا نفسي فرصة التحليق في فضاءات تخرجني من حياة رتيبة. فعالم أحمد الصالح عالم أميبي. متحرك. يخلق من أمانيه فسيفساء لوقته، يجردني من الوقت ويسحرني الى درجة ان روحي تهيم في ضباب كثيف لا يشبه المريخان الذي نراه كل صباح، ضباب كالحليب له رائحة القرنفل وندى همسات العاشقين.

اجتزنا المحرقة. ساحة كدّست فيها القمامة، تلال عديدة صغيرة وكبيرة. بقايا طعام نتن. علب فارغة. صفائح صدئة تآكلت ألوانها. أوراق صفر لجرائد حملت صورا لممثلين ومغنيات ورياضيين وساسة واخبارا

من كل بقاع الأرض. هبّت ريح جنوبية دافئة حملت معها حموضة تلك التلال. على مقربة منّا انتصب عمود من الغبار حاملا بحركة حلزونية قطع الجرائد وأكياس النايلون، التفت أحمد الصالح الى دولاب الريح وفي حركة سريعة تقدم ليدحو جسده في داخله، ومن داخل الدولاب سمعته يقول:

- دوري أيتها الريح واحملي جسدي.

لم أره بوضوح لكني لمحت ظله وسط الغبار يدور كالمغزل، يدور ويدور ويدور.. وكلما تقدم دولاب الغبار تقدم هو معه وما عدت اميّز بين أكياس النايلون والنفايات التي تدور وبين صاحبي. توقفت الريح ولم يتوقف هو. صار يدور بطيئا بطيئا.. بطيئا حتى توقف. قال قبل أن يلتقط أنفاسه:

- طالما حلمت ان أركب العاصفة، لكنها خذلتني. انتظرتها طويلا وحين آن أوانها خذلتني. النحس يتبعني أينما ولّيت وجهي كما تتبعني أنت.

- أنا.؟

حدّق في وجهي طويلا وزفر بعمق:

- أنت.

صمت. تمنيت ان أغرز أصابعي في صدره واخرج الشيطان الذي فيه ولكن دموعه استوقفتني وهي تتلاصق في عينيه راسمة خطين متعرجين على سمرة خديه. الملاك يبكي. كان يبكي، بكى، وبكى... وبكى حتى ظننت أنه يسخر مني. انتصبت أمامه صامتا منتظرا توقفه عن البكاء. ذرف من الدموع ما يكفي لسد فراغ ثلاثة أعوام قضاها بيننا، واعتقدت أن عينيه قد تيبستا، وحين لم أجد ما يبرر صمتي صرخت به:

- عليك ان تصرع شيطانك قبل ان يصرعك!

أجاب بلسان تغلّب عليه البكاء:

- تباً للشيطان. تباً.

مـددت لـه يـدي وأمسكته مـن ذراعـه وقدتـه الـى حيـث المدينـة التـي بـدأ الظـلام يلتهمهـا ويمتـص معالمهـا ببـرود.

*   *   *

(٤)

بعد حادث اختفاء أحمد الصالح قررت ان أضعه في مرمى بصري، وان لا أتركه لحظة، حتى في ذهابي الى المدرسة كنت أصطحبه معي. وحين أدخل الصف كنت أراقبه من خلال النافذة. يجلس تحت فيء شجرة اليوكالبتوس الكبيرة، وأحيانا ينظف الحديقة من الأوراق المتساقطة، يجمعها في برميل وضع خلف السياج. كان جسده يهزل يوما بعد آخر الى درجة أنه لم يستطع تلبية طلب المختار في أن يخرج للعمل مع معتوق الحداد. لا بد من أن يمتهن أحمد الصالح مهنة تعينه في حياته اللاحقة. عندما يكبر لا بد من سلاح يقاوم به مقتضيات العيش. وقد وجدت في فكرة عمله مع معتوق الحداد فرصة لإبعاده عن أفكاره الغريبة. لم يخرج الى العمل، كان يشكو من صداع. الجميع كانوا يظنّون أنه يتملّص من العمل، لكنني الوحيد الذي صدّقته.. فأنا أعرفه جيدا. أعرفه مثلما أعرف نفسي، فهو لا يكذب، معي على الأقل. أخذت تنتابه بين مدة وأخرى نوبات ألم في الرأس. كان يغمس رأسه في برميل الماء ويشدّ رأسه بحبل غسيل حتى يخيّل لمن يراه ان الحبل قد غاص في جبهته. بعد أيام قررت النسوة أن يأخذنّه الى مكيد أم خميّس بعد ان عرفن أنه بات عدة ليالٍ في المقبرة.

ثرثرنَ كثيرا في سوباط بيتنا، سمعتهن يتحدثن عن الجنّ وعالمه وما التصقت به من خرافات صدّقنها. قالت واحدة منهن:

- ليته يكون مسلما، الجني الذي تلبّسه.

ردت عليها الأخرى بلسان عارفة:

- حتى ان لم يكن، فالماما تستطيع أن تعرف ما يطلب.

- قد يؤذيه.

- الماما قادرة على أن توقفه!

كنت قد سمعت كثيرا عن الماما أم خميّس، ومكيدها الذي ينزوي عند حافة نهر في الجنوب. زرته مرة مع أمّي. كانت أصوات الدفوف تخترق أذني وصراخ النسوة وغناؤهن يبعث في نفسي الخوف والفضول في ان أرى ما يحدث داخل تلك الغرفة الكبيرة. كان قلبي يخفق بقوة مع ضربات النوبان.

في وسط بيت أم خميّس ثمة شجرة سدر كبيرة أحاطها سياج من القصب. سمعت واحدة من النسوة تتحدث عن تلك الشجرة. قالت:

- سدرة الماما أم خميّس علوية، يقولون إنها تنزّ دما في كل خميس، سدرة مباركة، لا يتم زفاف بنات حوز القشلة ما لم يطفنَ حولها ليلة عرسهن. وإذا لم يفعلن فسيصبن بضرّ أرضي أو هوائي. شاهدت واحدة جلبوها الى الماما وعيناها في هامتها. قالت الماما أن الجيمان أصحاب الأرض من الجنّ قد استحوذوا على جسدها. وبعد ان غسلت وجهها بماء الورد الذي تسميه الماما عرق النبي أمسكت بعصا غليظة وراحت تتوعد الجيمان وتطلب منهم مغادرة الجسد. تعرّقت الفتاة وانهارت، والماما لما تزل تخرجهم واحدا بعد آخر. كانوا ثلاثة!

صمتت المرأة قليلا ثم أكملت:

- كانت الماما أم خميّس تنتظر كل يوم ظهور الباز، وما ان يجيء ويحط على السدرة بجناحيه القويتين حتى تنادي على الجميع بصوتها الأجش: ان الأب جاء! مرحى بمقدم عبد الله دستور.. مرحى. فتنحر القرابين ويسال دمها عند السدرة بينما النسوة يرددن بغناء طقوسي: (ياالباز.. ياالباز.. نذر علي..).

لم يكن طائر الباز الا صورة لعبد الله دستور، الأب في شريعة الزيران. كنت استمع لتلك الحكايات وأنا أشعر بخدر جسدي، كان عالم الجيمان عالما يسحرني، وقد عرفت أن للباز الأب أخوة وأولاد. عالم غريب يتجسّد في تلك البقعة الصغيرة من حوز القشلة في جنوب الفاو.

رافقت ثلاث نسوة صاحبي أحمد الصالح الى مكيد أم خميّس، ركبوا في الباص الخشبي. كنت أقف قريبا من الباص. أبصرته يخطو بتثاقل بين العباءات الثلاث. صعدت واحدة ومدّت يدها اليه. التفتَ نحوي قبل أن يرفع يده اليها وما بين العباءتين رأيت عينيه الذابلتين وشفتيه المتيبستين وقد تعلق بهما ظل ابتسامة باردة. بكيته في سرّي وظننت ان فراقه سيطول.

قالت احدى النسوة اللاتي رافقن أحمد الصالح:

- عندما وصلنا الى مكيد الماما أم خميّس كانت الماما بانتظارنا، أخبرتنا ان هاتفا أخبرها بمقدمنا. صلينا على النبي. تهجّدنا. رمقت الماما أحمد الصالح بنظرة حادة، بصقت في وجهه المصفر وصاحت:

- أنت ثانية؟

قالت المرأة التي تلفلفت بعباءتها:

- دار في خلدي أن الماما تعرف أحمد الصالح، وربما قام معها بعمل يثير غضبها من قبل، وهو ما جعلني نادمة على مجيئي معه!

صمتت برهة وطأطات رأسها الى الأرض ثم قالت باسمة:

- لم تكن تعني الصبي، كانت تعني الجنّي الذي في داخله.

في الغرفة الطينية الكبيرة أدخل احمد الصالح تقتاده الماما وتتبعه النسوة الثلاث. باب من خشب الصاج ذو صفّاقتين تؤطّره زخارف امتدت كغصن ملتو. رأسا الغصن التقيا عند كلمة (الله) في أعلى الباب بينما انتشرت بنسق هندسي حلقات نحاسية في فراغي الصفاقتين.

قال أحمد الصالح فيما بعد:

- عندما اقتادتني المرأة الخلاسية ذات الصدر المتهدّل العريض والنظرات الثاقبة كنت أشعر أني أدخل عالما آخرا، لم أستطع التحكم بحواسي وحركتي، فهناك قوى خفيّة تحرّكني. قدماي تتحركان دون إرادة منّي وأصابعي. أدخلت الى غرفة ينبعث من إحدى زواياها ضوء سراج ترك خيط دخانه على حائط الطين. ثمة بيرق أخضر رسم على قماشته قمر ونجمة بيضاء، بيارق أخرى صغيرة، سود وبيض، توزعت على الحائط بموازاة سيف عربي عتيق علّق من حلقتي غمده المرصّع بالفضة. أجلستني المرأة الخلاسية بجانب مبخرة لم تتوقف عن تعطير المكان برائحة منحتني خدرا غريبا. غطّتني بملاءة خضراء شفافة كنت أرى من خلالها ما يحدث. كل شيء صرت أراه أخضراً وأنا أتطلع عبر الملاءة الخضراء، رأيتها، تلك المرأة الخلاسية توزّع الدفوف على صباياها اللاتي دخلن من باب الغرفة الكبير. بدأت تمطرني بماء الورد مرددة كلمات لا أفهمها. اخترقت أصوات الدفوف أذني، وبدا جسدي يختضّ. غارت عيناي، وانغلقت معالم المكان. لم أعد أسمع الا ضربات الدفوف، وأصوات المرأة الخلاسية، وصباياها وأشعر بقطرات ماء الورد تنفذ من خلال الملاءة على وجهي. فأغمي عليّ!

قالت المرأة التي اصطحبت أحمد الصالح بعد يومين من عودته الى بيتنا:

- صرخ الصبي حتى اهتزت لصراخه الجدران. لم يكن صوته ذاك الذي سمعناه. راح يرفس بقدميه الأرض كشاة مذبوحة. وبعد ان أغمي عليه رفعت عنه الماما الملاءة الخضراء التي تنقّعت تماما بماء الورد فبدا جسده كقطعة خشب. أمسكت الماما عصا غليظة وبدأت تنقر جسده من هامته الى أظفار قدميه. طلبت منا أن نضعه على حصيرة خارج المكيد ثم قالت: سيرتاح قليلا ويصحو كحصان!

كنت غافيا في سوباط الحوش حين عاد أحمد الصالح، نام بجانبي. صحوت فوجدته صاحيا. قلت له:

- كنت أحلم بك.

لم يرد. اكتفى بالإصغاء. وأكملت:

- كان رأسك منتفخا، تتوسط جبهتك ندبة مثل قرن مستقيم. فمك ينزّ دماً وعينك الواحدة تقدح شرراً. لم أرَ لك يدين أو ساقين أو...

أطبق يده على فمي وصاح:

- ترفّق بي. أنت تمسخني.

ضحك. سدّ فمه بعد ان ملأ تجويفه بالهواء حتى انتفخت وجنتاه وأشار إليّ:

- أنظر أني أحقق حلمك.

لقد عاد أحمد الصالح الذي عرفته. نشيطا، مرحا.. وعند الباب رأيت النسوة الثلاث اللاتي اصطحبنه. صاحت واحدة منهن:

- تركناك غافيا خارج المكيد، كيف جئت الى هنا؟

دون ان يلتفت لها قال:

- جئت راكضا.

قالت الثانية:

- حقا صار أقوى من حصان!

دخلن وتحدثن مع أمي. كنت أسمعهن وهنّ يحكين ما جرى لصاحبي في مكيد أم خميّس، بينما راح أحمد الصالح يكمل حديثه بما رآه هناك.

*   *   *

(٥)

الأيام تدور مثل مغزل قديم يلفنا بخيوط قوية. يوم يجر آخر. وآخر يتبع آخر. هكذا ندور معها.. وتدور بنا.. إلتحق صاحبي أحمد الصالح بدكان معتوق الحداد، ولم يجد صعوبة في عمله معه. بهر الجميع بمهارته وأوّلهم معتوق حيث كان يتحدث عنه باندهاش. مرة سمعته يقول:

- علاقة هذا الصبي بالحديد غريبة. ما رأيت الحديد ينصاع لأحد مثلما رأيته مع أحمد الصالح. تعلّم المهنة وكأنه خرج من بطن أمّه حداداً.. تصوروا صار يعلمني المهنة!

ما كنت مستغربا وأنا أستمع لحديث معتوق الحداد عن صاحبي أحمد الصالح. فهو يمتلك، كما قال لي ذات يوم، عقلا مغناطيسيا! يلتقط كل شيء بلمح البصر.

في المساء يجالسني، وأنا أحضّر واجباتي المدرسية، كان يشاركني في كلّ شيء.. يسألني بين حين وآخر عن كل مفردة في كتاب القراءة. اقرأ فيقرأها بعدي. تعلّم الحروف الأبجدية.. في اليوم التالي جاءني بورقة سلّمها لي قائلا:

- اقرأ..

حدّقت فيها ثم نظرت اليه مبتسما:

قال.

- كتبت إسمي وإسمك.

كان خطّه جميلا. حروف بارزة وواضحة. قلت له:

- أهذا خطك...؟

لم يجبني، انما أخذ ورقة من امامي، وراح يخطّ من جديد إسمينا. قال:

- وأستطيع أيضا أن أكتب مغمّض العينين!

أغمض عينيه وكتب. شيطان أنت يا أحمد الصالح حتى في هذا...قال واثقا:

- حفظت جميع الحروف، وأستطيع الآن أن أقرا كتابك هذا.

لم أكذب حين سميتك الجنّي.. فأنت جنّي حقّا. لك قدرة كبيرة في تعلّم الأشياء.. صار ينحت من قطع الصابون وجوها وأجسادا مختلفة. صفّها بانتظام أمامه. يغتسل بتماثيل الصابون.. كان يشعر بمتعة وهو يغمس تلك الأشكال في الماء، ويفركها بشعره المجعّد. كانت الأشكال تصغر بين يديه، وتذوب قبل أن ينفلت منها أنف أو إذن أو ساق.

قال عنه معتوق الحداد:

- عقله أكبر من عمره. أخشى أن يجنّ.

كان معتوق قد طلب من أحمد الصالح أن لا يظهر كل مهاراته في الحدادة كي لا تصبه عين. لكن أحمد الصالح – كما قال لي- لا يستطيع العمل بإشارة من إستاذه، لأنه لا يعمل بإرادته، بل انّ هناك قوى ترشده الى الطريق، وهو نفسه لا يعلم كيف اتقن مهنة الحدادة، وكيف تعلّم القراءة والكتابة بوقت قصير، وكيف استطاعت أصابعه أن

تنحت تلك الوجوه والأجساد والأشكال من قطع الصابون.

كان أحمد الصالح يقول:

- ليس هناك مستحيل أمام الإنسان، كل امرئ بداخله قوى اذا ما استنطقها سيكون العالم طوع يديه!

لم أعجب به، وبالكلام الذي سمعته منه فقط، بل خفت عليه أيضا من ان تؤدّي به هذه الأفكار الى الجنون.

اتخذ أحمد الصالح المخزن الملحق بورشة الحدادة مكانا مستقلا له. زرته مرة. وجدت تماثيله الصابونية، وقد وضعها في رف يمتد ما بين زاويتي المخزن. ووجدت أوراقا كثيرة لتصاميم مختلفة لشبابيك وأبواب ورفوف. من تحت السرير إستلّ صندوقا حديديا وقال:

- هذا لك. ضع فيه أشياءك.

- لا أشياء لديّ.

- ستكون لك أشياء.

أخذت الصندوق. أخذته منه. وضعته في حجرة أمّي، وفكرت في الأشياء التي سأضعها فيه. لم أجد الا ورقة لأحمد الصالح تلك التي كتب فيها إسمينا. إحتفظت بها في الصندوق وكأني أحتفظ بصاحبي أحمد الصالح.

*   *   *

(٦)

كلما تقدم بنا العمر فتحت جيوب لمشاغل كثيرة، وتوغلنا في نفق السنوات البهيم يرسم القدر مصائرنا، ونحن نتوق الى أمل بعيد. لم يكن ارتباطي بصاحبي أحمد الصالح ارتباط أخ أو صديق، بل هناك امتداد روحي أشعر أني لا يمكنني أن أستمر بدونه. كلانا يعرف ذلك. ولذلك كان غيابه بسبب إنشغاله في دكان معتوق الحداد عدة أيام يترك فراغا كبيرا في نفسي. لقد إزدادت المسافة التي تفصلني عنه، صرت لا ألتقي به في الأسبوع إلا يوما واحدا. إدماني على العيش معه جعلني أفكر فيه طوال الأيام التي ينشغل بها في دكان الحداد. تفردت بصحبته دون أولاد المحلة، لا لأنه وجد في بيتنا حرية أكبر مما هي عليه في البيوت الأخرى التي كانت تأويه - كما قال لي ذات مرة- إنما لأني وجدت فيه الروح المرحة الصادقة التي تستطيع أن تتغلب بسهولة على أوجاعها.. في أغلب الأحيان، وعندما أشعر بالضيق أذهب الى دكان الحداد، وحين لم أجده، أترك رسالة له عند معتوق.. كتبت له مرة: (أين أنت أيها الجنّي.. إشتقت اليك كثيرا..) انتظرته يومين، قلت حين يقرأ رسالتي سوف يأتي لكنه لم يفعل. في داخلي زعل عليه، لكني لا أعرف السبب الذي منعه عن المجيء. زرت معتوق الحداد مرة ثانية فسلّمني رسالة

منه بعد ان أخبرني انه يخرج منذ الفجر حتى المساء الى مناطق بعيدة.. كانت رسالة صاحبي أحمد الصالح عبارة عن تخطيط مع بضع كلمات، رسم الصورة التي رأيتها في منامي وعلّق بخط يده:

- معذور صاحبك الجنّي، فهو محاصر بين تماثيل الصابون والحديد. أراك الجمعة. دمت أخاً.

احتفظت برسالته في الصندوق الحديدي مع تمثال من الصابون كان قد نحته لي من قبل. رأس قُسّم الى نصفين: نصف يمثل وجهي، والآخر وجهه! لم يره أحد سوانا.. أتذكّر حين سلّمني التمثال، قال لي ضاحكا:

- إذا أردت أن تغتسل فاغتسل بوجهي أولاً ثم دع وجهك ليوم آخر!

- سأحتفظ به.

- لا بد أن تحتاجه.

- ليس للاغتسال بل للذكرى.

لففته بمنديل أبيض، وتركته يرقد بسلام بين عشرات الرسائل.

في الجمعة التي التقينا فيها كان أحمد الصالح يذكرني بمقالبه ومشاكساته التي قام بها من قبل.. كنت أجد متعة في الاستماع اليه، على الرغم من أني عشتها معه لكنني أشعر أني أسمعها لأول مرة! تحدّث عن النهر والمقبرة.. تحدث عن كمب البي بي سي.. وكشف لي أوراقا كانت مخفية عن تلك الحادثة..

تحدّث عن تلك الساعات التي تركته فيها هناك. بعد ان وقع في أيدي رجال الكمب. أخرج ورقة من جيبه، وقد رسم في جانب منها حوض سباحة خاليا من الماء، وفي الجانب الآخر رسم أجسادا متلاصقة بأوضاع راقصة مختلفة. قال وهو يشير الى الجانب الآخر من الورقة:

- هذا ما لم تعرفه أنت! سوف أكشفه لك الآن.

- ولِمَ الآن؟

قال وقد تلاصفت في عينيه الدموع، ولا أعرف أيّة دموع تلك:

- هو الحنين لسنوات الطيش.

مدّ إصبعه الى شاربيه اللذين اختطّا وأكمل:

- يجعلانني أكثر إتزانا.

- رجلا.

هزّ رأسه وقال:

- القدر أثث صباي، وعليّ بتأثيث رجولتي.

صمت طويلا ثم قال:

- أتذكر القميص الذي جئتك به من الكمب؟

- الأصفر؟

- صرت أنظّف به حذائي.

تأمل وجهي طويلا ثم قال:

- حين أدخلوني في يوم حوض سباحة كمب البي بي سي عاريا في الكرفان، ارتجفت من برودة المكان. ارتجفت كسعفة تتقاذفها الريح.. كان جسدي مبتلا بالماء. وكان الكرفان بارداً. إرتجفت. وارتجفت، كانوا يظنونني أرقص. فراحوا يرقصون معي. موسيقاهم نفخت نافوخي وضجيجهم. تراطنوا بكلمات لم أفهمها.. وجسدي يوهن. هم يرقصون وأنا أضعف... سقطت على الأرض وحملوني الى فراش لم أرَ فراشا قط بنعومته. ناولتني إحداهن قدحا ملأته بسائل أصفر من قنينة أخرجتها من ثلاجة لم يدعني الضباب الكثيف الذي بداخلها أن أتبيّن موجوداتها. سقتني بيديها. مذاق مُر دخل تجويف فمي. قالت بلكنة جعلتني أضحك منها: - اشرب. يجعلك قويا وسترقص طول النهار. شربت. وشربت حتى نسفت كل ما في القنينة. أردت النهوض لكنني أحسست أن السقف سيصهر عظامي. وصارت الجدران تدور بي. وتدور. دسست رأسي في الوسادة ولم أصح حتى المساء.. صحوت ولم أجد أحداً. لا أعرف متى لبست القميص، وبنطلون الكاوبوي، أو من ألبسني إياها. نهضت من الفراش ودنوت من الباب، باب الغرفة. ألصقت أذني في الباب. لا

صوت هناك. كان الصمت يخيّم على المكان بعد إن كان يضج بأصوات الموسيقى، ولغط الرجال والنسوة. فتحت الباب وعبرت رواقا خفتت إضاءته. وصلت الى الساحة، وبحذر شديد، إتجهت الى التلّة الترابية حيث النهر. غصت في الماء وعبرت الى الجانب الآخر من السياج.

سكت وهو يقرأ علامات الدهشة التي اكتسى بها وجهي ثم سلمني الورقة التي رسم فيها تفاصيل أحداث كمب البي بي سي وقال:

- احتفظ بها.

صار الصندوق الحديدي الذي بحوزتي يحمل كل أسرار صاحبي أحمد الصالح، لا ورقة تخصّني فيه عدا خطاباته الموجهة لي.

حدثني أحمد الصالح، إنّه قرأ كتبا كثيرة كان يستعيرها من المكتبة العامة، ولا يجد صعوبة في الحصول على الكتاب، وبخاصة ان أبا نبيل – مدير المكتبة- يعرفه جيدا فهو قد آوى في السنوات الماضية أحمد الصالح كما فعل أهل المحلة معه.

تحدث أبو نبيل عنه بفخر وعدّه نموذجا للصبر، والاندفاع والتحدي. فهو قد تحدى كل الظروف وتعلّم الكثير. وها هو ذا يستعير كتابا آخرا: روايات وشعر وأدب رحلات وتاريخ.

كشف لي ذات مرة صاحبي أحمد الصالح عن واحدة من قراءاته قائلا:

- مدينتك هذه، الفاو، كانت أوّل مدن العراق التي تصدت للاحتلال الإنجليزي في الحرب العالمية الأولى. لم يكن فيها يومذاك سوى مدفع واحد يمثل حامية للدفاع عن الدولة العثمانية. وما ان سقط المدفع حتى سقطت المدينة معه.

كان يلتهم الكتاب التهاما. ويخزنه في رأسه. منظومته المعرفية عبارة عن فطرة. وذكاء عفوي جاء تعويضا عن حياة الحرمان التي عاشها. وكلما تقدمت به السنوات انفتحت أمامه مجاهيل المعرفة وخزائنها.

كان يقول لي دائما:

- في الدرس يطلب منك ان تقرأ هذا أو ذاك. أما أنا فلا حدود لقراءاتي. تتلمذت على يد كتاب، وتخرجت في مدرسة الحياة.

(مدرسة الحياة) قالها وكأنه يمسك بقبضته زمنا امتد به بعيدا.

*   *   *

(٧)

التحق أحمد الصالح بالجيش، ولم تكن مسألة تقدير عمره صعبة، فقد ساعده المختار في ذلك. كان سعيدا إذ استطاع أن يحصل على ما يثبت وجوده إنسانا. فما معنى أن يعيش المرء في مجتمع دون أوراق أو هوية. وهكذا صار أحمد الصالح جنديا. في يوم الإلتحاق، كنت معه، ضابط التجنيد ينادي بالأسماء. قال لي أحمد الصالح:

- سوف ينادي باسمي.

رأيته يبتسم. ثم قال:

- سأكون مهمّا!

كتب لي رسالة من المعسكر الذي التحق به، ثم تلتها أخرى، ثم رسائل كثيرة، كلما انتقل الى وحدة عسكرية جديدة بعث لي برسالة. لم أجب على أيّة رسالة. لم يكن يذكر فيها عنوانا يمكنني ان أرسل رسالتي. لا أدري لِمَ يفعل ذلك؟ لماذا لم يترك لي عنوانا...؟ هذا الجنّي الذي كبر وصار جنديا. في آخر رسائله قال لي أن قائد الفرقة قد زار وحدتهم واختير هو وثلاثة جنود آخرين أفضل جنود في الانضباط العسكري. وقد رفّع الى رتبة جندي أول.. وأرسل لي رسما لجندي يزيّن ذراعه اليسرى خيط أسود، وأردفه بتعليق كتبه بقلم القوبيا بعد ان نقّعه بالماء:

- هذا أنا.. الجندي الأول أحمد الصالح. ألم أقل لك انني سأكون مهما.؟!

كما كتب لي ان قائد الفرقة أهداه ساعة يدوية، لم يذكر نوع الساعة. لكنني وجدتها تلمع في يده اليسرى في زيارته الأولى لنا. عرفت انها ساعة قائد الفرقة!

جلست معه ساعة كاملة حاولت ان أعرف فيها كل شيء عن جنديته. لم يخلع بدلته الخاكي طوال مدة مكوثه معنا. كان يقضي بعض وقته في دكان معتوق الحداد. يجلس عند باب الدكان. على الكرسي الحديدي يجلس طويلا. لم تكن عادته ان يجلس هكذا.. رأيته عن بعد جالسا وكأنه في انتظار أحد.. تتبعت نظراته. لم يرني برغم من أني أقف في الشارع المؤدي الى دكان معتوق الحداد. وضعته في مرماي وصرت أتابع كل حركة يقوم بها. أخرج سيجارة كان قد أخفاها تحت البيرية. لأول مرة أراه يدخّن. لم يخبرني من قبل انه بدأ يدخّن. نفث الدخان من فمه وصوّب نظراته صوب شباك خشبي احتضنه حائط متآكل. الشباك مغلق، وأحمد الصالح يغوص في صمته. معتوق الحداد في الداخل، أراه كشبح في عتمة الداخل. ربما كان يتحدث معه الا ان أحمد الصالح لم يفتح فمه الا لدخان السيجارة. بين لحظة وأخرى يشق وميض اللحام عتمة المكان ويغطي ظل صاحبي منطقة الشباك بقضبانه الصدئة، وبقع الصبغ المتبقية من لون أخضر. انتهت السيجارة، ووميض اللحام، ولم ينته صمت صاحبي. اقتربت منه في اللحظة التي داس ببسطاله عقب سيجارته. قلت له:

- لم أرك تدخن من قبل.

ارتعد كمن يفز من نوم عميق.

قلت له ثانية:

- ضبطتك تدخن.

- سيجارة واحدة في اليوم.

- ستصبح ثلاثا وخمسا وربما علبة كاملة.

- لأطرد السأم.

- وتضر نفسك؟

نهض من مكانه، وهو يمسح مؤخرته بكفّه اليمنى لكنه لم يحوّل نظره عن الشباك الذي قبالته. داهمته بالقول وانا أغمز بعيني مشيرا للشباك:

- عرفت سببا لتدخينك.

تلعثم في الكلام وتصادمت المفردات في حلقه:

- ما قصدك؟

ابتسمت وأنا أرى صاحبي يتصبب عرقا وقلت:

- لا شأن لي بذلك.

تركته واقفا في مكانه، وغادرت دون أن التفت اليه، وقد شعرت بأنفاسه تتبعني.

في المساء، دون أن أسأله، حدّثني عن الشباك الخشبي. راح يفتق أمامي أسراره وعجبت كيف استطاع أن يخفي عنّي كل ذلك. قال وهو يهيم في حلم بعيد:

- كانت هناك. خلف الشباك. تمشط جديلتها بمشط خشبي، شعرها كالليل وهو يغطي كتفيها. المشط يغوص في نعومته، حاول القدر أن يخط مسارا جديدا لي. لم آلفه. سقط المشط من يدها، وتجاوز قضبان الشباك قبل ان يستقر في الشارع. كنت أقوم بطلاء باب حديدي قبالة شباكها. في المكان الذي رأيتني فيه. رأيتها تنظر اليّ ثم الى المشط. تركت الفرشاة، وعلبة الطلاء والباب الحديدي. اقتربت من الشباك. رأيتها عن قرب. سحرني وجهها القمري، وهو محاط بسواد شعرها أشارت بإصبع كالبلور الى المشط. انحنيت قليلا فصاحت بي:

- ليس بيديك.

كنت قد نسيت أن يديّ ملطختان طلاء بل أني نسيت نفسي وانشغلت

بالنـار التـي اشـتعلت فـي صـدري.. جلسـت علـى ركبتـي. واحنيـت رأسـي، والتقطت المشـط بأسـناني. لا حلّ لـديّ غيـر هذا، وهذا يرضيهـا ويرضيني.. أنعشـتني رائحـة شـعرها التـي مـا زالـت ملتصقـة بالمشـط، خطـوت نحـو الشـباك، ومـددت رأسـي بيـن قضبـان الحديـد، فاسـتلت المشـط مـن بيـن أسـناني، لحظتئـذ كأنهـا اسـتلت روحـي بأصابعهـا. وصـرت أحلـم بهـا حتـى مـلأت كل ليالـيّ بأحـلام جميلـة. سـرقت قلبـي، وأوقعتنـي فـي شـباك حسـنها.

أهـو أحمـد الصالـح، صاحبـي، هـذا الـذي اسـتمع اليـه، هـذا يتفجـر حبّـا.. أهـو الجنّـي الـذي مـلأ الدنيـا، وشـغل النـاس؟ لـم أرَ أمامـي الا عاشـقا اكتـوى بنـار لا يعـرف مداهـا. أنصـت اليـه واصفـا تلـك التـي انتزعـت قلبـه مـن صـدره. آه لـو أراهـا، تلـك التـي روّضـت الجنّـي وجعلتـه يهيـم فـي عالـم أثيـري!

لـم يتحـدث معـي أحمـد الصالـح بعـد ذلـك المسـاء عنهـا ابـداً، الا اننـي كنـت أتحيّـن الفـرص مـاراً مـن أمـام الشـباك لعلـي أراهـا. توالـت الشـهور وفـي كلّ إجـازة يقضيهـا بيننـا أحمـد الصالـح كنـت أرقـب تصرفاتـه، وهـو يجلـس متسـمّرا أمـام الشـباك، فـلا الشـباك يفتـح لـه، ولا احمـد الصالـح يغـادر مكانـه. كنـت أكتـب فـي دفتـر صغيـر كل ذلـك. واصفـا حالـة صاحبـي بعـد ان هـدّه الغـرام حتـى مـلأتُ صفحـات ثلاثـة دفاتـر خبّأتهـا فـي الصنـدوق الحديـدي. بقيـت لياليـا وأنـا أفكـر فـي ذلـك الحـب الـذي مـلأ قلـب صاحبـي.

تعـوّد معتـوق الحـداد ان يضـع كرسـي أحمـد الصالـح عنـد عتبـة بـاب الـدكان، لا أعـرف لمـاذا، ولـم أسـأله أنـا. لكننـي شـعرت أنـه يتفـاءل فـي ذلـك. وفـي طريـق عودتـي ذات مسـاء، وقبـل ان يغلـق معتـوق دكانـه مـررت علـى المـكان، ومـن بيـن ضلفتـي الشـباك رأيـت الوجـه القمـر كأنـه يـودّع آخـر حلـم لـه. أحسسـت بخفقـات قلبهـا، وهـي تطيـر فـي فضـاء الشـارع وتأكـد لـي أن صاحبـي لـم يكـن واهمـاً اذ تـرك قلبـه ينتظـر فـي كرسـي فـارغ.

في إجازته الاعتيادية قلت له:

- رأيتها.

- ماذا؟

- تلك التي روّضت الجنّي!

وضع يده على كتفي وهزّني باسما:

- وأخيرا صدّقت.

وأمطرنـي بوابـل مـن الأسـئلة دون أن يعـرف أنـي لـم أرَ مـن وجههـا الا جـزءاً أشـرق مـن خـلال ضلفتـي الشـباك.

* * *

(٨)

ذات ظهيرة من شهر حزيران عام ١٩٨٠، الصيادون يرمون شباكهم في شط العرب بزوارقهم الصغيرة، والسماء تحتضن نتفا من غيوم بيض تناثرت هنا وهناك. كل شيء كان هادئا، قيظ الفاو يشوي الوجوه، والريح الشمالية اليابسة لا تزيده الا احتراقا.

بعد الواحدة تغيّر كلّ شيء، تغيّر السكون الى ما يشبه العاصفة. ثمّة أصوات لإطلاقات نارية متكررة جعلت الطيور تترك أعشاشها، وتهيم في الفضاء البعيد. رشقات من الرصاص شربها ماء الشط، ودفعت زوارق الجينكو الى ان ترتطم الواحدة بالأخرى، دقائق معدودات، وتوقف أزيز الرصاص، وعاد كلّ شيء الى ما كان عليه، أو هكذا ظننا، بدأت أصوات صرخات واستغاثة تطلقها زوارق الجينكو، وقد التصقت ببعضها حتى بدت كأنها كتلة واحدة. ركضنا حفاة باتجاه الشط، ثمة ناس كثيرون تجمعوا قبلنا. هم مثلنا سمعوا رشقات الرصاص التي لم نألفها. حشرت جسدي بين حشد الأجساد، وانزلقت منها الى الحافة الأمامية للشط. يا للهول.. ست جثث ملقاة على الأرض تلطخها الدماء.

قال أحد الصيادين وهو يشير الى الجهة الأخرى من الشط:

- رشقونا بالرصاص من هناك.

قال آخر:

- لم نفعل شيئا سوى أننا نصطاد من خير الشط.

كانت أصوات الغضب ترددها ألسن الناس، بينما كنت أسمع صوت أمّي يأتيني من بعيد، وهي تتحدث عن المصائب التي تجيء من الشرق. كانت كلماتها مثل ريح عاتية تصطدم في جدار الذاكرة، وتعيدني الى سنوات خلت.

حُملت الجثث على الأكتاف، بينما بدأ نهر من الدم يأخذ مجراه الى حيث شط العرب الكبير..

بدأ الخوف يتضخم، الصيادون لم يأمنوا - بعد الحادث- الصيد وسط الشط. بدا الناس يروون الحادث بطرق مختلفة. اختلفت الروايات، واختلقت روايات أخرى لا علاقة لها بالرواية الأصل. وحين التقيت بصاحبي أحمد الصالح حدّثني عن الرواية كما سمعها هو.. قال:

- سمعت ان سفنا حرقت، وجثثا شوهدت طافية عند حلق الخليج، لم يقل أحد أنهم قتلوا ستة!

يقينا ان الروايات تداخلت بين ما حدث في الفاو، وبين مناطق أخرى، ومثلما سمعت تلك المناطق ما حدث هنا، سمعنا نحن عن العدوان على المخفر الحدودي في زرباطية وفي الدعيجي بعد قصف شديد من الجانب الآخر. كانت كل مدينة حدودية قد تعرضت لعدوان بتوقيت واحد وطرق متشابهة مما يوحي أن الأيام القادمة ستكون حبلى بمفاجآت قد لا تسر!

أخبرني صاحبي أحمد الصالح أن وحدته العسكرية قد نقلت الى شلهة الأغوات وأن غيابه سيطول هذه المرة وقد أوصاني بتلك التي لم أرها أنا أبدا. نطق إسمها لأول مرة (نازك) وبرقت في عينه دمعة أخفاها بأصابعه.

غادر صاحبي المدينة كان هناك شعور ينتابني أنه يودع أحباءه

فيها وان نظرته الأخيرة يلقيها على مدينة كانت في يوم ما حضنا دافئا له. غادر تاركاً كرسيه فارغاً عند عتبة باب دكان معتوق الحداد.

أول صباح من أيلول يزحف باتجاه المدينة فاغراً فماً غريباً، حيث بعد حادثة الصيادين الستة لم يعد أحد ينزل الى الشط فسكنت الزوارق على الجرف الطيني من الشط الكبير، وغزتها الضفادع، ونمت على خشباتها الطحالب، وتهرأت شباك الصيد بعد ان توقفت عنها الأيدي كأن المدينة مقدمة على سبات طويل!

عدد من الطائرات الحربية الأمريكية الصنع حلقت في سماء الفاو. حلقت على ارتفاع منخفض، استطعت أن أميّزها بوضوح، بخيط دخانها الكثيف الطويل. هزّ صوتها بيوت الطين، والقصب، وأصيبت الطيور والأطفال بالذعر. كانت بداية لرحلة طويلة، قد ندفع فيها دماء عزيزة. خطرت في ذهني أن أخفي صندوقي الحديدي، بحثت عن مكان آمن فلم أجد غير أن أودعه الأرض. حفرت حفرة بعمق ذراعين تحت شجرة السدر الكبيرة وضعت فيها الصندوق، وكأني أدفن أحلامي، وخامرني شعور أني أدفن صاحبي أحمد الصالح.

من المعتاد أن نسمع صوت صفارة الإنذار في ظهيرة كلّ يوم معلنة انتهاء الدوام لعمال الميناء، ليخرج بعدها رتل الدراجات الهوائية الصفر من بوابة الميناء الكبيرة متجها نحو البيوت الآمنة، وكلما سمع الصغار صوتها وقفوا عند أبواب البيوت بانتظار آبائهم. ولكن هذه المرّة لم يكن الأمر كذلك. الصفّارة تسمع في غير أوانها، والدوام لم ينتهِ بعد، كأننا نسمع صوتها للمرة الأولى، صوتاً غريباً يخفي خلفه أمورا لم نستطع تخمينها. استمرت الصفارة تطلق صوتها مع كل طائرة تجيء، كان جنود لواء المشاة (١١١) قد استقروا عند أطراف المدينة متخذين من مباني المطار القديم مقرا لهم، بينما انتشرت بعض السرايا في داخل المدينة. بدأ الذعر يتسرب الى البيوت وما ان خرجت أول شاحنة من الفاو، وهي تحمل أثاثا لعائلة، حتى أعقبتها عدة شاحنات.. عدة عوائل ارتحلت ولم يبقَ الا القليل.. زارنا المختار، وتحدث مع أبي، لا أعرف ما دار بينهما من حديث، لكنني من خلال القلق الذي رأيته فيه

وعبوس وجهه، أحسست أن هناك أمراً ما يحدث هنا.

قال بصوت خفيض:

- علينا ان نرحل!

لطمت أمّي وجهها وصرخت:

- أنترك دارنا؟

- لا بد من الرحيل، قال المختار أن المدينة في مرمى المدافع.

- لكن المختار لم يرحل بعد.

- سيرحل بعد ان يتأكد من رحيل الجميع.

وسط صراخ أمي، وذهولنا، حزّمنا أمتعتنا الصغيرة، الملابس والأفرشة، وكتبي المدرسية. لم يرضَ أبي أن نرفع صورة جدي عن الحائط وقال:

- دع صورة جدك تحرس هذا البيت!

كان الصباح التالي صباحا كئيبا. بضع قذائف سقطت في البساتين المجاورة. قال سائق الشاحنة الذي وصل للتو:

- سقطت قذيفة على قن دجاج وقتلت معها بقرة بيت حالوب. الحمد لله ان حالوبا وزوجته ما كانا في البيت.

لم يجبه أحد من الذين تجمعوا حوله وراح يقص علينا حكاية الليلة الماضية:

- سقطت ثلاث قذائف بالقرب من الشاحنة عندما كنت أنقل أثاثا.. أصابت شظية قمرة الشاحنة.

أشار الى موضع الشظية. اخترقت الحديد، ونفذت من الجانب الآخر. أكمل حديثه قائلا:

- كان معي في الشاحنة رجل مسن، وامرأة وطفلها، وكانت شظايا القذائف تئز في فضاء الشارع. الأعمار بيد خالقها، ولا تسقط ورقة

خضـراء أبـدا.

كان إيمـان الرجـل كبيـرا. لـم أره خائفـا. بـثّ مذيـاع الشـاحنة أناشـيد وطنيـة يقطعهـا بيـن حيـن وآخـر صـوت رخيـم لمذيـع يسـترعي انتبـاه المسـتمعين الـى أن بيانـا سـيصدر بعـد قليـل.

تحلـق الرجـال فـي ظهيـرة يـوم ٢٢ أيلـول ١٩٨٠ حـول قمـرة الشـاحنة، وهـم يسـتمعون الـى مـا يبثـه المذيـاع. قـال أحدهـم:

- أنها الحرب.

تحجـرت الحدقـات علـى شـفّة الرجـل، وهـو ينطـق مـا لـم نكـن نتمنـاه. قـال ثانيـة:

- لنعجل الرحيل قبل ان تحرقنا نار الحرب.

ردّ عليه ثان:

- أذكر الله يا رجل. ما أظنها الحرب.

أشار الأول الى المذياع بأصبعه الذي أكلت منه الأرض كثيرا:

- ألم تسمع.؟ هو ذا صوت الحرب.

صاح شيخ عارف الذي كان جالسا منشغلا بلفافة تبغ:

- أبعد الله عنا الحرب، وويلاتها. أن الله لا يتبرأ من عباده.

كثـر الحديـث عـن الحـرب، وكل لسـان صـار يخـرج مـا فـي داخـل النفـس مـن مشـاعر، وخـوف، وتضاربـت الآراء، وبيـن تـارة وأخـرى يسـمع صـوت المذيـع وهـو يذيـع كلامـا كـرره عـدة مـرات.

صاح سائق الشاحنة:

- هلمّوا بنا قبل حلول الظلام فالطريق غير آمنة.

كان شـيخ عـارف يـذرف دموعـا لـم أرَ مثلهـا مـن قبـل.. دخّـن بشـراهة، وأمسـك حفنـة تـراب راح ينسـل بعـض منهـا مـن بيـن أصابعـه، كان يشـمّ التـراب، ويمـرّغ وجهـه فيمـا بقـي منـه ويبكـي. أمـا أبـي فقـد صمـت، وكان

صمتـه مخيفـاً.

انحشـرت النسـوة، والأطفـال فـي العربـة الخلفيـة مـن الشـاحنة بيـن قطـع الأثـاث والأفرشـة، وتجمّـع الرجـال حـول الشـيخ عـارف الـذي رفـض مغـادرة المدينـة. حاولـوا إقناعـه لكنـه رفـض، حاولـوا معـه مـرة أخـرى. وأخـرى فأطلـق صرخـة استجمع فيهـا كل قـواه:

- إن لـم نكـن قادريـن علـى حمايـة مدينتنـا، فلـن نسـتطيع حمايـة أنفسـنا وعيالنـا!

صمت لحظة ثم قال:

- أنترك الفاو في فكّ الموت بينما ننجو بجلودنا؟

قال رجل:

- الجيش سيحميها يا شيخ عارف، وهو أقدر منّا على ذلك.

نهض شيخ عارف من مكانه، وكأنني أرى المدينة قد قامت معه، وقال:

- شربنا ماءهـا. أكلنـا رطبهـا، وخيرهـا. ألـم يكـن هـذا كافيـا أن نبقـى معهـا فـي عسـرها. مـا هـي الا أيـام تـزول، ويبقـى الذكـر الطيـب. أتخشـون المـوت ولا تخشـون العـار؟ أنكـم فـي امتحـان صعـب، وعليكـم ان تجتـازوه، أمـا أن تبقـوا جميعكـم، وامـا أن تتركـوا فـردا مـن كل بيـت كـي لا يقولـوا عنّـا انهـم تركـوا مدينتهـم!

غسـلت كلمـات شـيخ عـارف نفوسـنا مـن الوهـن الـذي دبّ فيهـا. وأبعـدت الخـوف والفـزع عنّـا. كنـت أهتـزّ لـكل كلمـة يقولهـا.. وضعنـا شـيخ عـارف فـي مفتـرق طريـق صعـب. ووضعنـا قبـل ذلـك أمـام حقيقتنـا، ورجولتنـا. أنحشـر أجسـادنا بيـن النسـوة، والأطفـال، ونـهرب خائفيـن تتلقفنـا القصبـات والمـدن، وتترصدنـا الوجـوه، أم نبقـى كمـا النخـل مهمـا كانـت العواقـب؟

صاح سائق الشاحنة من جديد:

- هيا يا رجال.

دنوت من شيخ عارف، وأمسكت يده بقوة، وقلت له:

- سأبقى معك.

- وأنا..

- وأنا..

رفع شيخ عارف يديه الى السماء قائلا:

- الحمد لله إذ انجبت المدينة رجالا.

تحركـت الشـاحنة بمـن فيهـا متخـذة طريقهـا عبـر الازقـة المتربـة حاملـة معهـا أفئـدة وعيونـا مـا زالـت تلتصق بفضـاء المدينـة.

* * *

(٩)

بعد اليوم الثاني والعشرين من أيلول عام ١٩٨٠ أصبحت الفاو مرمى للقذائف والصواريخ، ولأنها لا يفصلها عن الجانب الآخر الا شط العرب، فقد كانت منطقة القصبة المقابلة مرمى لمدفعية جندنا. كل قذيفة تنطلق من هناك يرد عليها الرجال بوابل من القذائف. توقفت صفارة الإنذار، ولم تعد تطلق صوتها بعد ان غادر الناس المدينة. لا حاجة للصفارة في مكان ملتهب، فالمدينة بكل أسواقها وبيوتها وبساتينها، صارت ساترا واحدا. لم تنم المدينة مذ قامت الحرب، من رأس البيشة، في الجنوب، حتى السيبة، في الشمال، ثمة عيون تحدق في الثعالب المتربصة لها.

في كل مساء، وبعدما يخيّم الظلام على المدينة يبدأ شيخ عارف جولته يدور في أزقتها، ويتفقّد بيوتها واحدا فآخر، ويقضي ساعات طويلة مع جنود اللواء (١١١) في مواضعهم وثكناتهم.. وفي النهار كنت أطوف حول شباك نازك متذكّرا صاحبي أحمد الصالح. بقي الشباك مفتوحا يكشف عن عتمة المكان وصمته.. على دكّة دكان معتوق الحداد جلست مستمعا الى انفجارات القذائف وأصوات الرصاصات المتفرقة التي تأتيني من بعيد. أمام شباك نازك جلست كما يفعل صاحبي أحمد الصالح وجها لوجه أمام الشباك الخشبي وظل

صاحبي يشاركني المكان... يا أحمد الصالح، يا جنّي، أين أنت الآن.. أما زلت في شلهة الأغوات، أم حطّت بك الحرب في مكان آخر. أعرف أنك لن تموت، ففيك من الحب ما يجعلك أكثر تشبثا بالحياة. أيه يا صاحبي: أوصيتني بنازك فذا شباكها خال. وبيتها مهجور. اخترقت الشظايا شباك حبيبتك لكنها لم تستطع قتل حبك. ولن تتمكن منك. أنت الآن تقاتل من أجل هذا الحب. كن يقظاً يا صاحبي. من أجلي، من أجل مدينتك، من أجل نازك التي أحببتها. أحمد الصالح: يا جنّي، أما زلت تمسح حذاءك بقميص كمب البي بي سي؟ أما زلت تنحت من قطع الصابون وجوها وتماثيل؟ إني اشتاق اليك..

بكيت وبكى معي ظل صاحبي، وشباك نازك، ودكان معتوق الحداد والكرسي الفارغ الذي يغفو بصمت في عتمة الدكان مع قطع الحديد والجينكو. في كل مكان أذكره، وكل مكان يذكّرني به، كل جدار، أو جذع نخلة، أرى فيه وجه صاحبي أحمد الصالح، صارت ذكراه شغلي الشاغل في أيامي اللاحقة. لم أفكّر بأحد سواه. كل جندي سألته عنه لم يدلّني عليه، ولم يعرفه أحد. صرخت في وجه أكثر من جندي:

- كيف لا تعرف أحمد الصالح؟

بعضهم يسخر مني، وآخرون يمرون دون جواب، كنت أظن أن الجميع يعرفونه كما أعرفه أنا! كيف لم يسمعوا عنه، هو إنسان أميبي يتحرك في لحظة واحدة الى كل الجهات. في يوم ما، أخبرني هو أنه استطاع أن يوطد علاقته بجميع آمريه والجنود في المعسكر.

- كلهم أصدقائي!

قال ضاحكا ثم أردف قائلا:

- أستطيع أن أجعل سكان مدينة كاملة أصدقاء لي!

استغرب كثيرا حين أسمع أن أحدا لا يعرف أحمد الصالح، أو لم يلتق به. سألت عنه كي أخبره عن حبه الكبير، ماذا لو عاد وسألني عنها؟

ماذا لو عاد ولم يجدها؟

كانت فرصة لي أن اسأل المختار الذي زارنا ذات ظهيرة حاملا معه متاعا لنا، أن أسأله عنها، ولأني لا أعرف إسم صاحب البيت، فقد اكتفيت بتحديد موقعه. هزّ المختار رأسه وقال:

- تسألني عن أبي نازك. هم في الناصرية.

تنفّست الصعداء، أستطيع الآن أن أجيب صاحبي إذا ما سألني عنها.. ولكن، متى يجيء هذا الجنّي...؟

أمرنا شيخ عارف بأن نحفر عددا من المواضع، كل موضع يسع شخصين وحصّناها بأكياس الرمل. في ساعات النهار، وحين يشتدّ القصف، كنا نلوذ بالمواضع صامتين. كل قذيفة تسقط على المدينة تقتطع جزءا منّا.

مضى أسبوع، ولم تنته الحرب كما تنبأ شيخ عارف، وكل دعوة سلام وجهت من بلدنا في اطفاء النار المتأججة لم تجد اذنا صاغية من الطرف الآخر. في المذياع الصغير الذي جلبه لنا المختار نستمع الى بيانات الحرب، وتفرحنا الانتصارات في كل الجبهات، وتحزننا المدينة وهي تذوب تحت أعاصير القذائف.

ذات ليلة، حين توقف القصف، وبقيت مشاعل التنوير معلقة في الفضاء كملائكة تحرس المدينة، سمعت صوت صاحبي من خلل المذياع، كان يتحدث في برنامج خاص بالمقاتلين..

ألصقت أذني على بدن المذياع وسمعته واضحاً:

- أني المقاتل أحمد الصالح أنقل تحياتي الى جميع أهل الفاو..

وراح يردد الأسماء فردا فردا، لم ينسَ أحداً، شعرت به يبكي، انتقلت دمعته عبر الاثير، واستقرت ما بين أهدابي، بكيت وأنا أحدّث الشخص الذي شاركني الموضع:

- أسمعته. لم ينسَ أحداً.

عرفت من المذيع ان اللقاءات تنقل من المحمرة المحررة. اذن، صاحبي هو الآن في المحمرة. وهذا أول خيط يدلّني عليه. تمنيت لو استطاع

المذياع أن ينقل صوتي اليه: (ليت لي سرعة مؤشر الراديو في الانتقال بين المدن!)

مضت بنا قافلة الأيام، وشيخ عارف ما زال يصبّرنا، وبرغم رباطة جأشه الا انني أشعر أن في داخله قلقا كبيرا. كان يشعر بأن الحرب قد تنتهي في أيّة لحظة، وتنبؤاته تشير الى ذلك، لكنها -الحرب- قد خيّبت ظننا بتنبؤاته! انتهى الأسبوع، والثاني، والثالث والرابع.. ولم تنته الحرب. صار شيخ عارف يبتعد عنا، ويتحاشى الجلوس معنا حتى صار يغضب حين يرانا نضحك، فأغلب الظن أنه يعتقد أننا نتندر بتنبؤاته. وساءت صحته، وما زال وهم الخوارق يعتريه. فوجئنا به ذات يوم يقول:

- كم هي قاسية الحرب، لا توقّر كبيراً، ولا تعطف على صغير.

قذف كلماته كمن يقذف حجرا في ماء ساكن. أخيرا عرف حقيقة الأمر، وحقيقته. كان يهذي بهمس كأنه يحدّث أحداً بينما كانت قواه تخور سريعاً.

في وحدة الميدان الطبية لفظ شيخ عارف آخر أنفاسه.. كانت عيناه مفتوحتين كأنهما تودعان عبر شق في الخيمة المدينة التي أحبها. مات شيخ عارف فحملناه وسط قصف شديد الى المقبرة. هناك، كان التراب يغطّي جسداً باركه الشط والنخل والملح. مات شيخ عارف وماتت معه نبوءاته لكنني كنت أراه كل ليلة يجيء من المقبرة على فرس بيضاء، يدور في الأزقة القديمة، ثم يعود مع أول خيط للفجر الى قبره ليرقد في سلام.

* * *

(١٠)

بعد موت شيخ عارف تفرّق الشباب، كأن موته تأشيرة رحيل لهم الى المدن البعيدة. كان عليّ أن أترك المدينة معهم، لكنها كانت تشدّني اليها. بقيت أياماً مع أفراد الجيش الشعبي، جاءوا من أنحاء متفرقة. من الوسط والشمال. في المساء، وحين يهدأ جسد المدينة، كنت أحدثهم عنها وعن ناسها، وعن رأس البيشة والفنار الكبير الذي حلّ محل علم عبيّس! حدثتهم عن علم عبيّس كما سمعت الرواية من شيوخ المدينة:

- لا أمان للبحر!

جملة يرددها كل من كان البحر له مأوى، ومصدر رزق. والحاج عباس واحد من الرجال احبّوا البحر، عاش سنين حياته في الماء أكثر مما قضاها على اليابسة، لسعات الشمس، والملح جعلا جسده صدفياً. يخرج بزورقه الصغير، وولده حيث البحر، يمضيان النهار بين الماء والسماء، لم تستطع الشيخوخة أن توقف الحاج عباس عن الخروج الى الصيد، كان يقول دائما، البحر مأواي وقبري. هكذا تمنّى، وذات شتاء عاصف تحول البحر الساكن الى مارد مخيف، وكاد الماء يلتصق بالسماء. تقلّب البحر كصفحات كتاب في ريح عاتية. حاول الحاج عباس أن ينقذ ولده الوحيد من يد القدر لكن القدر هذه المرة اختار

الحاج. وغرق قبالة رأس البيشة. صار له البحر قبراً كما أراد.. وصار المكان يُعرف بعلم عبيّس ليكون شاهداً أن لا أمان للبحر ابداً!

كنت أحدّث القادمين من المدن البعيدة عن أساطير الفاو، وطيبة أهلها، ولأنهم لم يلتقوا بأحد من أهلها، فقد ظنّوا أن تلك الحكايات ما هي الا نسج خيال! لم يواجهني أحد بظنونه لكني شعرت بذلك من خلال أسئلتهم الكثيرة، وضحكهم المتواصل، واندهاشهم المثير، لكنهم سيصدقونني لو رأوا شيخ عارف كما أراه أنا في كل ليلة.. ربما سيرونه في ليلة دكناء تغسلها الشظايا وتضيؤها قنابر التنوير، وتطربها أصوات الرصاص الطائشة لقناصين ما خلدوا للنوم.

كل صباح أزور سوق المدينة. أتوقف عند مكتبة الفاو، ومطعم حبيب عنبر، ودكان إسماعيل المصور، ومقهى كريم ناصر، أزور سوق الأسماك التي ما زالت تحتفظ بالزفر، وأصوات الباعة، وكأنها تخرج من نفق عميق. كل مكان يذكرني بصاحبي أحمد الصالح، عند إسماعيل المصور جلس ذات يوم على كرسي حديدي، أمام صندوق الكاميرا، كان إسماعيل المصور يدحو برأسه في القماشة السوداء. لا نعرف ما الذي يفعله في داخل الصندوق، الا اننا كنّا ننتهزها فرصة للضحك دون أن يرانا. كان ذلك قبل التحاق أحمد الصالح بالجيش. كل شيء بقي ساكنا، باستثناء سيارات الايفا، والجيب العسكرية. حتى محرقة المدينة التي كان ينبعث منها الدخان طوال أوقات النهار والليل توقفت. وتوقف الباورهوز، وحركة الرافعات في الميناء، وأصوات باعة النفط والغاز والملح المتجولين. توقف كل شيء، وبقي قلب المدينة نابضا وعيناها مشرئبتان لأهلها الذين تلقفتهم المدن.

لم يأتني خبر عن أحمد الصالح، ولم أسمع صوته ثانية في المذياع.. انتظرت أياما وأياما.. وطال الانتظار ونفد الصبر.

عند المقبرة الكبيرة وقفت. السعفة التي وضعناها على قبر شيخ عارف يبست، صحت بصوت ارتطم بالقبور:

- حان وقت رحيلي. المدينة تضيق بي يا شيخ عارف. المدينة تضيق.

لـم تنتـه الحـرب مـا دمـت تطـوف الازقـة العتيقـة بفرسـك البيضـاء ليـلا.. عـد نهـارا يـا شـيخ لأصـدق مـا تنبـأت بـه.. أنـا آخـر المكذبيـن بـك. عـد نهـارا يـا شـيخ لأصدّق عينـيّ. لـم تنتـه الحـرب يـا شـيخ عـارف. لـم تنتـه حتـى تـأكل منـا الأصابـع والعيـون والقلـوب.

....

اتكأت على قبر صغير، وانتظرت ان يجيبني شيخ عارف لكنه لم يفعل.

وغادرت.

*   *   *

(١١)

غيوم من دخان اسود امتدت على طول شط العرب في الضفة الأخرى. حرائق لخزانات نفط، وبيوت، ومزارع وثكنات حرب.. في محطة انتظار الجنود وقفت بانتظار سيارة الاعاشة التي ستقلني الى البصرة. عدد من الجنود افترشوا الأرض، وآخرون تجمعوا حول صنبور ماء وهم يغسلون وجوههم من غبار المواضع. قال لي أحد الجنود:

- ان كنت تسأل عن أحد سوف أدلك عليه. أنا أعمل في قلم اللواء.

لم أستغرب لأنه طلب مني ذلك، لأنني كنت المدني الوحيد بين عشرات الجنود. قلت له:

- هذه مدينتي.. ما جئت كي أسأل عن أحد، ولكن لو تعرف شيئا عن اللواء الثالث والثلاثين.

قال:

- اللواء في المحمرة. لواء بطل. كل جندي فيه يعادل سرية كاملة.

زادني حديث الجندي عن ذلك اللواء فضولا أن اسأله عن صاحبي أحمد الصالح. قلت له:

- لي صديق فيه اسمه أحمد الصالح.

صاح الجندي بصوت عال:

- الصاروخ!

حدّقت في وجهه. لم أسأله عن صاروخ، ولكني سألته عن صاحبي، وكأنه عرف سرّ دهشتي وأردف قائلا:

- يسمّونه في اللواء الصاروخ، سمعت عنه ذلك في الفيلق، قالوا إنه ينطلق بسرعة الصاروخ، ولا يرتد أبداً. وسمعت أنه كرم بنوط شجاعة.

فرحت. فرحت جدا. ورحت أتباهى بصداقتي معه أمام الجندي:

- هو صاحبي. من الفاو. من هذه المدينة. عشنا معا في بيت واحد. هو أخي قبل ان يكون صاحبي.

- من حقّك ان تفخر به. فهو مقاتل شرس كما سمعت عنه.. من حقّ كل أبناء المدينة ان يفتخروا به.

حمدت ربي اذ التقيت بمن طمأنني عليه. أستطيع الآن ان أسأل عنه كل أفراد اللواء. بل أستطيع أن اسأل كل جنود الفيلق. فأخبار البطولة تنتشر بين الأفراد إنتشار العطر في النسيم.

سيعلق النوط على صدره، ويقف أمام نازك قائلا:

- هذا من أجلك. من أجل أن تبقين عفيفة طاهرة. من أجل أن لا يمسك سوء أحمل نيشان الدفاع عنك، كما أحملك أنت في صدري. في قلبي. وسط الدخان الكثيف، والرصاصات القاتلة. كل زقاق نطهّره كنت أراك فيه. رأيتك في أمكنة عديدة: في الفيلية، والميناء، والسورة، وعلى ضفاف الكارون، وعند مشارف عبادان. يقينا أنت معي دائما...

هكذا أجد متعة في استحضار صاحبي. استحضره أينما كنت وأينما كان. في لحظة تختزل الزمان، والمكان، وتقرّب روحين.. طريقة الاستحضار هذه تعلمتها منه. من صاحبي أحمد الصالح. قال:

- كلما ضاقت بي الدنيا، أغمض عيني، واستحضر صورة أمي وأبي. أحدثهما ويحدثانني.

علّمني أحمد الصالح أن أغمض عينيّ، وأسرح في خيال بعيد. لاستحضر من شئت. في المرة الأولى، لم أستطع الإمساك بمن أريد. حين أغمضت عيني كانت صور عديدة تتحرك في عتمة حدقتي. وجوه كثيرة تنزلق يمينا، وشمالا، وتتحرك كما البرق، وتسقطني في بئر الذاكرة العميقة، وجوه لأناس أحببتهم وفارقتهم وآخرين لا أعرفهم ولم ألتقِ بهم. وجوه مختلفة. وجوه كلاب وقطط. أمكنة مختلفة: أنهار، شوارع، غرف مؤثثة، وأخرى مهجورة. أسلاك شائكة، وعربات نقل، مطايا ونباح كلاب، وفواخت وعصافير. صوت نار تأكل في هشيم التنور. أشياء كثيرة احتفظت بها الذاكرة، وخزنت في قعرها. كنت أحاول الإمساك بواحدة منها لكنها كانت تختفي، وتظهر أخرى. وأخرى. وأخرى.. أيام قضيتها هكذا قبلما أروّض ذاكرتي وقدرتي. حاولت ونجحت. أكرر إسم من أريد استحضاره عدة مرات، وأغمض عينيّ، وأتنفس عميقا، فأراه. ذاك الذي استدعيته من قعر الذاكرة. أراه كما رأيته آخر مرة. نجحت في أن أرى صاحبي أحمد الصالح.. ببدلته العسكرية، والنوط الذي يزيّن صدره. لم أره آخر مرة بالنوط، لكنه جاء به الآن..

رأيته باسما. حسن الوجه. قلت له:

- أين أنت يا صاحبي؟

أشار الى صدره قائلا:

- في المكان الذي جعلني بطلاً!

- حدّثني عنك.

قال:

- حين التهبت النار، وصارت قاب قوسين مني. تذكرت اللحظة التي وقفت بها أمام كوخنا الصغير، والنار تأكله بما فيه. رأيت وجه أمّي

عبر لهب النار تستنجد بي. رأيتها وهي تذوب وتصرخ.. لم يكن أمامي الا أن أقتحم النار وأخرجها منه. وكلما تقدمت كانت تبتعد عنّي حتى ظننت أن برزخا يفصلني عنها. ما يئست تقدمت بطول قامتي حتى صار الرصاص يتشظى في جانبي. لم أعر اهتماما لتحذيرات الآمر، ولا الجنود الذين معي. اصطبغ إسفلت الميناء بالدماء. والأجساد تتقاذف أمامي وصوت أمّي أسمعه يأتيني من بعيد.. سكن كل شيء وبقي صوتها يملأ فضاء الميناء.

قلت له هامسا:

- لقد انتصرت لها من نار أرادت أن تأكل ما بقي لك.

- ليتني استطعت أن أخرجها وأبي من نار الكوخ.

- كنت صغيرا.

- كنت ضعيفا!

انطفأت الذاكرة. وغاب أحمد الصالح في العتمة، وأحسست بيد الجندي الذي بجانبي تمسكني. وقال:

- الشاحنة بانتظارك.

* * *

(١٢)

في مدرسة مهجورة اتخذتها العوائل المرتحلة من الفاو سكناً وتوزعت على الصفوف، وغرف الإدارة، والرواق المؤدي الى الساحة الكبيرة. هناك، بقيت أياما لم يغب خلالها عن ذهني صاحبي أحمد الصالح. كانت الصفوف تضجّ بضحكات الصغار، ولعبهم. وعلى الرغم من اننا لم نكن بعيدين عن القذائف التي تسقط على المدينة الا أن شعورا بالأمان كان ينتابنا.

كان ملا يوسف قد اتخذ من غرفة الصف الرابع سكنا له، ولعائلته الصغيرة. يجلس منفردا، وهو يسجّل في دفتر صغير كل بيان يذاع عن القيادة العامة للقوات المسلحة. ولأنه أصمّ، فقد كان يشتري جريدة مساء كل يوم ينقل منها البيانات. كلّفني عدة مرات أن أقوم بعمله في أوقات انشغاله أو مرضه، استهواني العمل معه. صرت أسجّل كل ما أسمعه من المذياع خلال النهار. دفتر الملا يوسف صار سجلا كبيرا، وسجلات متعددة، كانت الحرب تنمو في درج مكتبته الصغيرة، وكانت الأيام حبلى بمعارك لا حدّ لها. هو مثل شيخ عارف. بالضبط مثله. انتظر توقفها ولكنها لم تستجب. انتظر مثلما انتظر شيخ عارف لكن

ملا يوسف كان أكثر صبرا منه، كان الملا نقياً، تقياً، أقرأ في شاربيه ولحيته البيضاء تاريخا بعيدا. ملامحه تذكّرني بالصورة التي رأيتها في كتاب التاريخ، صورة عمر المختار، كان مثله تماما. كنت لا أفرّق ما بين الرجلين، ولا أجد اختلافا بين ملامحهما. كان الملا يوسف غوّاصا ماهراً، حدّثني عن أيام الغوص قائلا:

- كنت أغوص الى عمق البحر، بحثا عن المحار واللؤلؤ، ذات يوم، وحينما كنت أبحث ما بين الصخور شاهدت مهدا صغيرا، أدهشني المهد، وأدهشني الطفل الذي فيه، مثل قطعة ذهب، يحرك يديه وقدميه، والأسماك الصغيرة تدور حوله كأنها تؤدي طقوسا ... تشبثت بالصخور وأنا أدفع جسدي الى أمام. رأيته، طفل المهد الذهبي. مددت له يدي في اللحظة التي ذعرت فيها الأسماك، وتحركت الصخور، وخرجت من تحتها حورية بأصداف مضيئة، ووجه من نور. نفخت في وجهي، نفخت بقوة. فاخترق الماء أذني، هززت الحبل الذي يشدني من قدمي، سحبت الى سطح البوم ومنذاك فقدت السمع!

رواية سمعتها عن لسانه، ثم سمعتها من آخرين، لم يجر أي راو تعديلا، أو إضافة لها، تكاد تكون الرواية الوحيدة التي احتفظت ببنائها دون زيادة أو نقصان. ليست مثل رواية شيخ عارف التي تشظت الى مجموعة روايات كان آخرها ان شيخ عارف قد اختفى في شجرة سدر، وسيخرج ذات يوم من الشجرة نفسها في اليوم نفسه الذي اختفى فيه، منهم من قال يوم الاثنين، وآخر قال يوم الخميس.. وبعضهم راح يردد:

- ان من يستظل تحت السدرة فهو آمن. ومن يغتسل بوريقاتها لن يأكل دود الأرض من جسده شيئا، ومن أكل نبقها ما جاع أبداً.

مات ملا يوسف ولم تنتهِ الحرب أيضا....

آخر صفحة من سجله الخامس تحمل تاريخ ١٩٨٣/١٠/١٤

*   *   *

(١٣)

لـم يزرنـا أحمـد الصالـح طـوال السـنوات الماضيـة، حتـى حيـن اسـتقر بنـا المطـاف فـي بيـوت. لـم يزرنـا أبـداً علـى الرغـم مـن اننـي تركـت لـه رسـالة فـي مقـر الخلفيـات لكنـه لـم يـأت..

القصـف يشـتد علـى مدينـة البصـرة، وأخبـار العمليـات الحربيـة فـي الجبهـات تمـلأ الإذاعـات والصحـف. معـارك متلاحقـة فـي بحيـرة الأسـماك وشـرق البصـرة، وفـي كشـك البصـري. كنـت علـى يقيـن أن صاحبـي سـينجو لكـن إحساسـا مـا يجعـل صـدري ضيقـا. سـألت عنـه ثانيـة فـي المقـر ذاتـه. فـي غرفـة صغيـرة وبيـن أكـداس السـجلات جلـس نائـب الضابـط الـذي راح يحـدّق بـي عبـر زجـاج نظارتـه السـميك.. ثـم قـال:

- أنت أخوه...؟

- من أهله!

طوى السجل الذي أمامه، وأطلق زفرة جعلت فرائصي ترتعد ثم قال:

- اطمئن. المواقف تتغيّر باستمرار!

نهضت مقتربا منه، وقلت:

- لم أفهم.

قال:

- الموقف غير مستقر، لم أجد إسما له في قائمة الشهداء ولا الموجودين!

- مفقود...؟

- سنعرف فيما بعد.

نفحة من الذكريات اخترقت رأسي، وحفّزت دمعة أن تأخذ طريقها الى خدّي. حاولت أن أقنع نفسي، واكذّب الأوراق التي بسطها أمامي نائب الضابط.. رجل مثل أحمد الصالح إن لم يكن شهيدا فلا يمكن ان يكون الا حيّاً، فهو أقرب الى الحياة منه الى الموت. غاب قبل ذلك ثم عاد، لا يمكن أن يسجل في الموقف مفقود!

في الليلة التالية حلمت به، جاءني على فرس مثل تلك التي رأيتها مع شيخ عارف. لم يتحدث معي. نظر اليّ بعينين مبرقتين وغادر. وتكرر الحلم بعد ليلتين أخريين، ولم يقل شيئاً.

لم أحدّث أحدا عن حلمي، حاولت أن أجد تفسيرا لذلك.. لكن فرس شيخ عارف راحت تؤرقني.. انتظرت أسبوعا، وعدت الى مقر الخلفيات لعلي أجد خبرا عنه. استقبلني نائب الضابط نفسه، وبحفاوة أكثر مما استقبلني فيها في المرة الماضية. لم أستطع التخلص من قلقي وقبل أن أجلس قلت:

- هل هناك أخبار عن أحمد الصالح؟

أشار نائب الضابط اليّ بالجلوس. جلست وأنا أنتظر منه جوابا، وكعادته راح يتصفح سجل المواقف اليومية.. رأيته مرة أو مرتين يختلس النظر اليّ من زاوية نظارته السميكة.. كررت عليه السؤال وهو ما زال يقلّب الأوراق. ورقة ورقة، ببطء حتى استفزني. آه لو يعلم هذا الرجل ما يدور بداخلي، أنا مثل سمكة انغرزت في خياشيمها سنارة حديد، أتأوّه في داخلي بألم شديد.. دقائق معدودات

وطـوى نائـب الضابـط السـجل كمـا فعـل فـي تلـك المـرة وقـال:

- للأسف. الموقف لم يتغيّر. صاحبك مفقودّ!

- مفقود...؟ الى متى...؟

رفع نظارته السميكة بأصبعيه ووضعها أمامه على المنضدة، وقال:

- الى ان يتغيّر الموقف. وسيتقرر مصيره بعد انتهاء المجلس التحقيقي.

- وماذا بعد...؟

- هذا ما تقرره شهادة الشهود.

هـذا يعنـي ان هنـاك شـهودا، جنـودا رأوه وسـمعوه، ولكـن مـن يدلّنـي علـى أولئـك الشـهود...؟ حاولـت أن أعـرف أسـماءهم مـن نائـب الضابـط الا انــه قـال:

- هناك دائرة قانونية مختصة بذلك.

وسـدت كل الأبـواب التـي توصلنـي الـى صاحبـي أحمـد الصالـح.. وبرغـم ذلـك الا اننـي أجدنـي مقتنعـا أن الأيـام القادمـة تخبّـئ فـي جعبتهـا مـا يدلّنـي عليـه..

* * *

(١٤)

في الأيام التالية، عرفت إثنين من الشهود، كانا ضمن حضيرة أحمد الصالح، أحدهما فقد ساقه، والآخر نجا من الموت بأعجوبة، كلاهما يعرف أحمد الصالح، يعرفانه مثلي، مثلي تماما.. وربما حدّثهما هو عني، فالسنوات التي قضاها بينهما كافية لأن يعرفا كل شيء عنه، وعن أصدقائه، ومدينته. وهذا ما كنت أظنه قد فعله صاحبي أحمد الصالح.

في بيت ريفي يغفو بهدوء في حافة بستان كبير يقع في الجانب الشمالي من المدينة بعيدا عن مرمى القذائف، والصواريخ، التقيت بأحدهما.. صابر العايش: شاب نحيل، ملتح، رأيته جالسا تحت فيء نخلة بدشداشته البيضاء، ثمة عكازان الى جانبه، جلست معه، وكنت أحدّق في العينين اللتين رأتا أحمد الصالح آخر مرة. ربما أرى صورته ملتصقة في الحدقتين.

قلت له:

- جئت أسألك عن أحمد الصالح.

كمن تفجّر في داخله حزن عظيم، ظل يحدق في عكازتيه، ويتلمّس موضع الساق التي بترت. قال:

- في ليلة كان فيها القصف شديدا، ينزل علينا كمطر أسود، احتمينا نحن أفراد الحضيرة في موضعين لم تكن النار بعيدة عنهما. سقطت قذيفة في الموضع المجاور، وأخرى بالقرب من حافة موضعنا، شعرت بالساق، وهي تطير مني في الهواء. لم أرَ ساعتها أحمد الصالح، وجاسم حمزة اللذين يشاركانني الموضع، كان الظلام يمنعنا من رؤية أصابعنا. لحظة ووجدتهما يخرجان من قاع الموضع. حملني أحمد الصالح على ظهره.. بينما بقي جاسم يبحث في الموضع القريب عن أحياء. وتحت وابل كثيف من القذائف سار بي صاحبك، كنت على ظهره، ودمي يرسم مسارا متعرجا من ظهره الى الأرض. قذيفة أخرى سقطت بالقرب منا، سقط أحمد الصالح أرضا وسقطت معه. لم أدر ما حصل بعد ذلك. ولم يرشدني أحد اليه.

صمت وهو يخفي دمعة عني، ثم قال:

- أنت إذن صاحبه الذي كثرما حدّثني عنك. صاحبك بطل، شهم. أرجو أن يكون سالما!

لا أعتقد أن أحمد الصالح يرضى بأن يموت بقذيفة عمياء طائشة. ولا في مكان بعيد عن مدينته، لقد قال لي ذات يوم:

- حتى لو راودني عزرائيل في آخر الدنيا سأطلب منه فرصة ان يميتني في الفاو.

أعتقد انه في اللحظة تلك كان يتذكّر مدينته. ونازك، وشباكها الخشبي. لا أنسى يوم قرأت عليه قصيدة للسياب (شباك وفيقة) قال لي:

- لو قدّر لي ان أكتب شعرا لكتبت قصيدة شباك نازك!

عدت من صابر العايش كئيبا بعد ان وضعني في طريقين متنافرتين، عدت كئيباً وأمامي فرصة البحث عن جاسم حمزة، الشاهد الآخر فقد

يكـون هـو الخيـط الآخـر الـذي يوصلنـي بـه.

التقيتـه فـي اليـوم التالـي لسـقوط قذيفـة فـي داره. لـم يصـب أحـد بـأذى، ولـم يخـرج شـيء مـن البيـت ذا نفـع! إلتقيتـه وكأنـي أقـف أمـام صاحبـي أحمـد الصالـح، لقـد أخـذ منـه طـول قامتـه، ومـن لسـانه لباقتـه.. أجبرتـه علـى الـكلام بحـذر شـديد، وتوسـلت اليـه أن لا ينسـى شـيئا قـد يفيدنـي. قـال:

- عرفتـه قبـل شـهر مـن الهجـوم، إلتحقـت باللـواء ضمـن الوجبـات الجديـدة. شـعرت وأنـا ألتقيـه كأنـي أعرفـه مـن قبـل. مـن زمـن طويـل. صاحبـك خـال مـن العقـد. كان يقـول لـي: (لا أخـاف علـى شـيء، ولا مـن شـيء) يـأكل قليـلا، ويتحـرك كثيـرا، برغـم مرحـه إلا أنـي اكتشـفت أن فـي داخلـه حزنـاً كبيـراً، وجرحـاً عميقـاً. عرفـت بعـد ذلـك أن حادثـة والديـه تركـت فـي نفسـه ذلـك. يركـض باتجـاه المـوت كـي لا يعطيـه فرصـة لاقتناصـه، هكـذا كان يقـول لـي، يتحـدث عـن الحـب بمـا لـم يتحـدث عنـه مجنـون ليلـى. فـي ليلـة الهجـوم رأيـت وجهـه مشـرقاً. لـم يخـفِ عنّـا الوشـم المرسـوم فـي ذراعـه. بـدا واضحـا بحروفـه القرمزيـة (نـازك). لـم نسـأله عنهـا. لكننـا التقطنـا نتفـاً مـن أحاديـث سـابقة لـه عـن الفـاو ونـازك. رفـع هـذه المـرة كـم قميصـه عـن الوشـم كأنـه يعلـن عـن سرّ دفيـن. ومـع اشـتداد القصـف، اختـارت قذيفـة الموضـع الـذي بجانبنـا، ثـم تلتهـا أخـرى سـقطت بمحـاذاة الموضـع الـذي كنـا فيـه: هـو وصابـر العايـش وأنـا. حمـل صاحبـك صابـر بعـد ان بتـرت سـاقه بينمـا بقيـت أنـا أتفقـد الموضـع الآخـر. لـم أره بعـد ذلـك. فـي ذلـك الليـل البهيـم مـن الصعـب أن تحـدد مكانـك.. ومـن الصعـب ان تجـد مـن يحميـك.

كان الأمـل يخبـو كلمـا اقتـرب جاسـم حمـزة مـن ختـام روايتـه، بينمـا اليـأس يأخـذ طريقـه الـيّ.. يـدبّ فـي جسـدي مثـل خـدر طفيـف. وقبـل ان أغـادره، قـال لـي جاسـم حمـزة:

- أن من يمتلك إشراقة وجه صاحبك أحمد الصالح لا يمكن أن يموت!

*	*	*

(١٥)

كل عام انتظر بارقة أمل أن يعود صاحبي، ذاب مثل فص ملح في الماء. انقطعت أخباره، لكنّ الأمل باقٍ في أن اراه من جديد. سيعود أحمد الصالح ذات يوم، مثلما يعود الطِير المهاجر الى عشّه الأول. سيعود ما دامت صورة مدينته مرسومة في عينيه: بأهلها، ونخلها وملحها وشطها الكبير وخليجها الواسع. بذكرياته فيها، واحلامه وحبه الطاهر، ولم يكن غيابه الا مرحلة تتفتح منها آفاق جديدة لحياة أخرى. لا يمكن ان يقتعني سطر صغير ما بين عدة أسطر في سجل الموقف اليومي أن عودته مستحيلة. سيخرج أحمد الصالح ثانية من نهر في الجنوب، أو من كثبان الملح، أو بساتين النخيل، تاركاً طعمه في الرطب البرحي، والبمبر والنبق، ولونه في الحناء والعنبر، ووجوه الأطفال، وصوته في زقزقة العصافير، وغناء الفواخت، وهلاهل الأمهات، ورائحته في الآس، والورد وخبز التنور ورائحة الأرض، سيعود صاحبي أحمد الصالح حتماً، مثلما عادت الفاو بوجه مشرق على أكفّ آلاف الشهداء وأرواحهم، وسيكون طريقه الى الملح أبداً.

(البصرة آب ٢٠٠٢)

قراءات في رواية الطريق الى الملح

عبد الكريم العامري يرسم مشاهد الطفولة وذكريات المكان وبقايا الحروب في رواية الطريق الى الملح

د. عمر الخواجـا / الأردن

فـي روايـة الطريـق الـى الملـح يقودنـا الروائـي عبدالكريـم العامـري نحـو المـكان مباشـرة حيث يرسـم للقـارئ لوحات مشـهدية من ذاكرة تحمـل داخلهـا تضاريسـا واضحـة لمـكان مُحتشـد بذكريـات مليئـة بالأحاسـيس والوجـدان والعواطـف (... هـو المـكان ذاتـه الـذي تركتـه مـن قبـل مجبـرا وهـا أنـذا أعـود إليـه ثانيـة ومعـي صـورة صاحبـي أحمـد الصالـح ومفتـاح صنـدوق تركتـه هنـاك تحـت شـجرة سـدر فـي حـوز الجبيلـة .. ص ٤) ... يبرزُ المـكان في بداية الراويـة كمحـور رئيسـي للحـدث فيظهـر مُكتظـاَ بالتفاصيـل الدقيقـة والتـي اختزنتهـا ذكريـات الطفولـة حيـث الأشـجار والنخيـل والمسـاحات الخضـراء والتـي تحمـل داخلهـا مشـاهد الحـرب والتحريـر وتدفـق سـيل مـن دمـاء الشـهداء (أيهـا الزائـر أرض الفـاو تمهـل وأمعـن النظـر وكـن رقيقـا رفيقـا بـارض الفـاو فإنهـا الأرض التـي سـالت عليهـا دمـاء ٥٢٩٤٨ شـهيدا ... ص ٥) ... وهـو المـكان الـذي يعيـش داخـل وجـدان سـكانه فيتمسـكون بـه ويرفضـون التخلّـي عنـه ويفضلـون المـوت بشـرف فـوق ترابـه الحنـون ، فهـا هو شـيخ عـارف يصـرّ علـى التّمسـك بالبقـاء فـي بيتـه الغالـي حتـى المـوت (... فـي وحـدة الميـدان الطبيـة لفـظ شـيخ عـارف آخـر أنفاسـه .. كانـت عينـاه مفتوحتيـن كأنّهمـا تودّعـان عبـر شـق فـي الخيمـة المدينـة التـي احبهـا ، مـات شـيخ عـارف فحملنـاه وسـط قصـف شـديد إلـى المقبـرة ، هنـاك كان التـراب يغطـي جسـدا باركـه الشـط والنخيـل والملـح ، مـات شـيخ عـارف وماتـت معـه نبوءاتـه لكننـي كنـت اراه كل ليلـة يجـيء مـن المقبـرة علـى فـرس بيضـاء يـدور فـي الازقـة القديمـة ثـم يعـود مـع أول خيـط للفجـر الـى قبـره ليرقـد فـي

سلام ... ص ٤٢) .... وهو المكان الذي يحوّله العامري لرمز عابق بالحكايات الخارقة والقدرات غير الطبيعية مما يُنتج خليطا من المعجزات البشرية التي تربط بين هالة القداسة التي يُضفيها الكاتب على أبطاله وأجواء المكان العابقة بالعاطفة والأحاسيس فيستنتج القاري أن هذه المدينة التي يتحدّث عنها الكاتب ليست مجرد بيوت وشوارع وأسواق وحجارة وتراب بل هي كائن يملك قلبا نابضا بالحبّ والعاطفة الصادقة وعيونا ترى آثار الحرب المدمرة ومشهد هروب السكان فتختلط المشاعر بالحزن والدموع تجاه أهلها الذين رحلوا بفعل الحرب نحو المدن الأخرى (... كل صباح أزور سوق المدينة أتوقف عند مكتبة الفاو ومطعم حبيب عنبر ودكان إسماعيل المصور ومقهى كريم ناصر ، أزور سوق الأسماك التي ما زالت تحتفظ بالزفر واصوات الباعة وكأنها تخرج من نفق عميق ، كلّ مكان يذكرني بصاحبي احمد الصالح ، عند إسماعيل المصور جلس ذات يوم على كرسي حديدي امام صندوق الكاميرا كان إسماعيل المصور يدحو برأسه في القماشة السوداء لا نعرف ما الذي يفعله في داخل الصندوق ألا اننا كنا ننتهز فرصة للضحك دون أن يرانا ، كان ذلك قبل التحاق احمد الصالح بالجيش كل شيء بقي ساكنا باستثناء سيارات الايفا والجيب العسكرية حتى محرقة المدينة التي كان ينبعث منها الدخان طوال أوقات النهار والليل توقفت وتوقف الباور هوز وحركة الرافعات في الميناء وأصوات باعة النفط والغاز والملح المتجولين ، توقف كل شيء وبقي قلب المدينة نابضا وعيناها مشرئبتان لأهلها الذين تلقفتهم المدن ... ص ٤٣)

في رواية الطريق الى الملح رواية نجد ذكريات الطفولة وقد ارتسمت في قلب المشهد السّردي كعلامة مميزة تحمل داخل تفاصيلها قصصا مليئة بمشاعر الفرح والحزن والأحاسيس المختلفة (... كنا نقضي ساعات نهاراتها في ماء النهر ، لم يكن نهر الجبيلة عميقا لكنه كان يغص بنبات الجولان ، ننزل الى الماء بدشداديشنا نضحك لانتفاخها وهي ترفعنا الى أعلى وحين نغوص في الماء نسمع أزيز محركات محركات

السفن وهي تتنقل لنا من شط العرب الكبير ، كان جدي يجلس فوق عتبة باب البيت على حصيرة خوص النخل والمهفة المبللة بالماء لا تغادر يده ، حدثنا عن رحلاته الثيرة وعن موانيء تمتد على طول البحر ، حدثنا عن آخر رحلاته الى مومباي قبل أن يقعده حادث سقوطه في غرفة المكائن ، كنت أراه سندبادا يجوب البحار حاملا غبار المدن التي وطأتها قدماه ورائحة البحر الذي اغتسل جسده فيه ص ٦)

في ذكريات الطفولة يرسمُ عبدالكريم العامري عددا من المشاهد المؤثرة ذات الطابع الوجداني العميق ويؤسس لذكريات نُقشت في ذاكرة الانسان والجغرافيا ومنها حادثة فيضان النهر حيث يصوّر الكاتب بعناية فائقة مشهد تعاون سُكان المدينة في مواجهة هذه الحادثة المفاجئة المؤلمة (فيضان النهر مصيبة ، وهو يقتحم الأبواب ويملأ البيوت ماء ، خرج الرجال والنسوة وخرجنا نحن الصبية معهم ، يبدو النهر كقدر فاض ماؤه وكان على الرجال ان يوقفوا تدفق الماء، صار الشارع نهرا ، الرجال يعملون تساعدهم النساء ونحن نلعب فرحين بالماء الذي زار بيوتنا ، تغوص سيقاننا فيه حتى الركب غير آبهين بما سيحدث ، لا أعرف لم صرخت امي وهي ترى الماء يدخل غرف البيت وقد سمعت منها ذات يوم ان الماء في الحلم يعني الخير الوفير ، هل صرخت امي من خير يقتحم علينا البيت بعدما أكل القحط والفقر من أجسادنا الكثير ؟..... ص ٧) ومن خلال الصور المتعددة لذكريات الطفولة تظهر شخصية بطل الرواية الصديق احمد الصالح بحكاياته وافعاله المدهشة والتي تُمثّل بتفاصيلها ركنا أساسيا من أركان المشهد الروائي فمن هو احمد الصالح صاحب هذه الانطباعات والذكريات المؤثرة ؟ احمد الصالح حكاية مفعمة بالمحبة والأخلاق والوفاء فبعد أن فقد انتمائه العائلي حيث لم يعرف له عائلة او نسب أو ام أو اب اختار ان يكون منتميا لكافة سكان مدينته فهم اهله وأصدقائه

وجيرانـه وهـم مصـدر سـعادته وفرحـه (... لقد أحب المدينـة والنـاس وكثيـر مـا سـمعته يـردد بيـن حيـن وآخـر أنـه فـي الفـاو ولـد وفيهـا يمـوت وعندمـا خاطبتـه ضاحـكا : لا أحسـبك تمـوت فـي الفـاو .. قـال بإصـرار لـم أره فيـه مـن قبـل : حتـى لـو راودنـي عزرائيـل فـي آخـر الدنيـا سـأطلب منـه فرصـة ان يميتنـي فيهـا .. ص ١٤) لقد جسّـد احمد الصالـح بوفائـه قيم الصداقـة الحقيقيـة مـن خـلال انتمائـه لناسـه وأهلـه وتعلقـه بهـم وقـد ظهـر ذلـك بوضـوح كبيـر مـن خـلال تأثـره الشـديد بعـد أن حُـرم مـن الالتحـاق بالمدرسـة لعـدم امتلاكـه أوراقـا ثبوتيـة (... وعـرف أن لا قيمـة لـه دون أوراق ، فـي الأيـام التاليـة كان يقضـي الوقـت وحيـدا بعـد أن التحـق كل أولاد المحلـة بالمدرسـة ، وتغيـرت حياتـه ولـم يعـد ذلـك الولـد الشـقي المشـاكس ، لـم يعـد ذلـك الجنـي الـذي تـراه فـي كل مـكان وفـي وقـت واحـد ، صـار اكثـر هـدوءا وصمتـا وبـدت الشـكوك تنـال منـه والأرق يهـد قـواه فهـو وأن كان الصبـي ذا السـت سـنوات الا انـه يـدرك كل شـيء ... ص ١٥) لـم يستسـلم احمد الصالـح لواقعـه المحـزن ولـم يتـرك للظـروف القاسـية مجـالا بـأن تحرمـه مـن التعلّـم بـل ازداد إصـرارا علـى التحـدي والمواجهـة فأخـذ يتعلـم بنفسـه عمليـة القـراءة والكتابـة (... فـي المسـاء يجالسـني وأنـا أحضـر واجباتـي المدرسـية ، كان يشـاركني فـي كل شـيء .. يسـألني بيـن حيـن وآخـر عـن كل مفـردة فـي كتـاب القـراءة ، أقـرأ فيقرأهـا بعـدي ، تعلـم الحـروف الأبجديـة .. فـي اليـوم التالـي جاءنـي بورقـة سـلمها لـي قائـلا : اقـرأ .. حدقـت فيهـا ثـم نظـرت اليـه مبتسـما قـال : كتبـت اسـمي واسـمك ... ص ٢٦) ولكـن الإنجـاز الكبيـر الـذي اعتبـره احمـد الصالـح اثباتـا حقيقيـا علـى كونـه شـخصا مهمـا هـو التحاقـه بالجيـش وانجازاتـه العسـكرية المميـزة والتـي أشـعرته بقدرتـه علـى تجـاوز الصعوبـات وتحقيـق المسـتحيل (التحـق احمـد الصالـح بالجيـش ولـم تكـن مسـألة تقديـر عمـره صعبـة فقـد سـاعده المختـار فـي ذلـك ، كان سـعيدا إذ اسـتطاع ان يحصـل علـى مـا يثبـت وجـوده انسـانا فمـا معنـى أن يعيـش المـرء فـي مجتمـع دون أوراق أو هويـة .. ص ٣١

) ولكنّ احمد الصالح بشخصيته القوية وحبه للتحديات لم يتوقف عند أهمية تجاوز عقبة عدم امتلاكه أوراقا ثبوتية بل تخطى هذا الامر نحو تحقيق الإنجاز تلو الإنجاز بعد أن غادر مربع الطفولة نحو حياة العسكرية القاسية (... في آخر رسائله قال لي أن قائد الفرقة قد زار وحدتهم واختير هو وثلاثة جنود آخرين أفضل جنود في الانضباط العسكري وقد رفّع الى رتبة جندي أول وارسل لي رسما لجندي يزين ذراعه اليسرى خيط اسود واردفه بتعليق كتبه بقلم القوبيا بعد ان نقعه بالماء : هذا انا الجندي الأول احمد الصالح ألم أقل لك أنني سأكون مهما ؟! .. ص ٣٢).

في رواية الطريق الى الملح يرسم عبد الكريم العامري صورة الحرب بكلّ أبعادها المفزعة من دمار وخراب وجراح وموت حيث تبدأ الحرب مع صفارة الإنذار والتي تُطلق صوتا طويلا معلنة بداية ملحمة من المعاناة والآلام والدموع ومع مشاهد الرحيل والهجرة والتشرد تتعمق حكاية المعاناة الإنسانية والنفسية (.... بدأ الذعر يتسرب الى البيوت وما ان خرجت أول شاحنة من الفاو وهي تحمل أثاثا لعائلة حتى أعقبتها عدة شاحنات ... عدة عوائل ارتحلت ولم يبق الا القليل ... زارنا المختار وتحدث مع أبي لا اعرف ما دار بينهما من حديث لكنني من خلال القلق الذي رايته فيه وعبوس وجهه أحسست أن هناك أمرا ما يحدث هنا قال بصوت خفيض: علينا أن نرحل ص ٣٦) ويواصل العامري رسم ملامح الحرب وردة فعل الأهالي واصفا حالة القلق والتردد والإنكار التي ترتاب ساكني الفاو فأغلبهم غير مصدق أن عليه أن يترك بيته وحارته وجيرانه (...أنترك الفاو في فك الموت بينما ننجو بجلودنا؟ قال رجل: الجيش سيحميها يا شيخ عارف وهو أقدر منا على ذلك ص ٣٨) وهكذا تبدأ الحرب التي تجعل من المدينة التي غادرها السكان ساحة ملتهبة من القذائف التي تدوي معلنة ان المدينة تواجه مصيرها دون نوم او راحة او هدوء (.. بعد اليوم الثاني والعشرين من أيلول عام

١٩٨٠ أصبحت الفاو مرمى للقذائف والصواريخ ... ص ٣٩) ومن خلال سرد وقائع هذه الأحداث المؤلمة والتي تمتد طويلا يعود بنا الروائي العامري نحو رحلة البحث عن البطل احمد الصالح كفكرة رئيسية في رواية الطريق الى الملح، ترى اين استقر احمد الصالح وأين اخذته هذه التحولات القاسية ...؟ احمد الصالح بخوض غمار المعارك مُتسلحا بشجاعته وبحب الناس له فها هو عبر المذياع وفي خضم اشتعال نار القذائف والانفجارات الملتهبة يرسل بتحياته لناسه وأصدقائه وجيرانه ذاكرا أسماءهم فردا فردا وكأنه ما زال يعيش بينهم أو كأنهم ما زالوا يسكنون في قلبه وعقله (... ذات ليلة حين توقف القصف وبقيت مشاعل التنوير معلقة في الفضاء كملائكة تحرس المدينة سمعت صوت صاحبي من خلال المذياع، كان يتحدث في برنامج خاص بالمقاتلين ... الصقت اذني على بدن المذياع وسمعته واضحا: أني المقاتل أحمد الصالح أنقل تحياتي الى جميع أهل الفاو ... وراح يردد الأسماء فردا فردا، لم ينس أحدا، شعرت به يبكي انتقلت دمعته عبر الأثير واستقرت ما بين أهدابي .. ص ٤١) وفي رحلة البحث عنه يرسم الروائي صورة المقاتل البطل الذي يجسد روح التضحية والفداء وصورة الشجاعة والاقدام مما أهله كي يحصل على لقب الصاروخ بين زملائه المقاتلين فهو يلبي نداء الواجب دون تردد او خوف انه احمد الصالح الانسان الوفيّ لأصدقائه وجيرانه والمخلص لوطنه ورفاقه المقاتلين ، ولكنّ البحث عنه لا يثمر عن شيء سوى نفحات من شجاعته في الميادين التي خاضها فاسمه ليس بين قائمة الموجودين كما انه ليس بين الشهداء اذا هو مفقود (... رجل مثل أحمد الصالح ان لم يكن شهيدا فلا يمكن أن يكون إلا حيا فهو أقرب إلى الحياة منه إلى الموت .. ص ٤٨)

في رواية الطريق الى الملح يروي الأديب عبد الكريم العامري قصة البطولة والتّضحية والشجاعة ، ولكنه قبل كل ذلك يتحدث عن البطل

قراءة في رواية الطريق الى الملح للمبدع عبد الكريم العامري

نقوس المهدي/المغرب

مدخل لا بد منه

تولد رواية " الطريق الى الملح" للأديب عبد الكريم العامري في النفس العديد من التداعيات الاليمة، وتحرك في اعماق النفس الكثير من الذكريات الدفينة.. هكذ ا وجدتني مشدودا بحبل سري بابطالها كانهم احبابي واهلي.. الحب نفسه الذي اختزنته لسنوات متتالية لكاتبها عبد الكريم العامري. ولصديقي مضر حمد السعيد الفتى البغدادي والشاعر الطموح الذي افتقدته في أتون حرب الخليج الاولى.. لا هو من بين اسماء قوائم الشهداء ولا من عداد المفقودين.. ابتلعته الارض الى يومنا هذا.. والذي تعرفت من خلاله على روايات الحرب لـ " إيريك ماريا ريماك".. وادب الواقعية الاشتراكية عند مكسيم غوركي وخورخي أمادو ، وتنظيرات انطونيو غرامشي .. وقرات عن طريقه اشعار حسب الشيخ جعفر وسعدي يوسف.. وعرفني على تاريخ النضال الجماهيري في الخليج.. والمعارك العقائدية والفكرية المحتدمة بين صفوف الطلبة العراقيين.. والاغتيالات والاختطافات التي تطال المناضلين.. وقصيدته الحزينة "شهادة عن مناضل اغتيل ذات مساء عند مدخل البار العتيق" .. واوراقه التي بعثها الي من ساحة المعركة ووسمها باوراق صفراء من زمن الحرب تحدث من خلالها عن ملابسات يومياته في الميدان ومعاناته وآماله العريضة الواسعة المتدفقة الرقراقة التي التهمتها الحرب اللعينة.. وتاريخ الحزب الشيوعي و"الرفيق فهد" وجريدة

"الطريق" التي نشرت بها بعض الخربشات المبكرة.. وسلكت بعدها الطريق الشاق لـــ " أحمد الصالح " في سبيل البحث عنهما فلم اعثر لصديقي مضر على اثر.. فيما دلني على صديقي الآخر من غرناطة المبدع محسن الرملي..

قراءة في العتبة

العنوان مفتاح تاويل النص.. هكذا يحيلنا عنوان الرواية المكون من جملة اسمية على الطريق وركوب الاهوال وتكبد المشاق من اجل البحث عن الزمن الضائع.. اي على الرحلة.. ذلك ان الرحلة كتابة في المدى، والكتابة رحلة على الورق. اذ "يخيل إلي أن كل كتابة رحلة في الزمان والمكان (الفضاء). وقبل كل شيء هي رحلة في المساحة اللامتناهية لجغرافية الكلمات" بحد تعبير الناشر الفرنسي الشهير فرانسوا ماسبيرو. ومن جانب اخر على الملح حيث شخص تقاسم معه الراوي الخيز والملح كما نقول في المتخيل الشعبي.. وهو بوابة تتدفق عبرها بشكل لامتناهي جملة من المتتاليات التي تتولد في رحم الغيب.. وتحيلنا على عالم روائي مؤثث بالاحتمال والتوجس والمفاجاة والشوق والحنين المعشش في الحنايا والذكريات الحارقة والتاريخ الضمني لشخوص ينبضون املا ورقة وبساطة.. الأم رمز الارض، والجد رمز التاريخ العريق، ومعتوق الحداد الذي يحيل اسمه على العتق والتحرير، ونازك التي يرمز اسمها الى الرمح انظر لسان العرب ص ٤٩٨، وما جاء في الحديث " ان عيسى يقتل الدجال بالنيزك ".. وكل هذه المؤشرات الايقونية تكتسب دلالات تعج بالارادة والاصرار على تحرير مدينة الصبا ومرتع الشباب.... وترمز في نفس الآن للحياة والأمل والإستمرارية.. وتحاول التأريخ بهذه المعطيات لثالوث الانسان والمكان والزمان عبر أوبة الراوي بعد زمن طويل من الغياب القسري الى كنف مدينته المحررة العابقة بجمال مدينة " الفـــاو ". والتي عمدتها دماء ٥٢٨٤٨ شهيد عدا العديد

مـن الاسـرى والمفقوديـن والمعطوبيـن .. وهـذه احصـاءات رسـمية تختفـي وراءه اكمتهـا الوجـه الحقيقـي والسـافر للانظمـة السـنبدة.. والصـورة البشـعة للحـروب، ومـا تجـره مـن ويـلات ومآسـي مـن ترميـل النسـاء وتشـريد الاطفـال وتشـتيت العوائـل، وتكبيـد البلـد العديد مـن الخسـائر الاقتصاديـة والسياسـية الفادحـة .. علـى هـذه الصـورة تبتـدئ الروايـة وتبـدو المدينـة بعد ان يعـود اليهـا البطـل وهـي محررة مـن المحتـل وفـي زمـن " بـدأت الارض تخضـر... والاشـجار تسـتعيد عافيتهـا" ص ٩.. بعـد ان دمـرت وحطمـت الحـرب كل شـئ فيهـا، واقتلعـت رؤوس النخيـل... وعبـر الاسـتعانة بالتذكـر والاسـترجاع " الفـلاش بـاك" يلملـم الـراوي شـتات ذاكـرة منهكـة وضبابيـة لرصـد حيـاة "احمـد الصالـح"، وايـام الصبـا والشـيطنة والعفرتـة والجنـون والحـب والعبقريـة والجنديـة .. مسـلطا كاميرتـه علـى تحـولات المـكان وهواجـس البطـل وجزئيـات حياتـه الشـبه الشـطارية .. ذكريـات جارحة تسـربت عبـر نافـذة السـيارة محمولـة علـى هـودج الريـح الشـرقية الملتهبـة والحارقـة دافعـة الـراوي الـى هـوة الماضـي السـحيقة ص١١.. وركـوب قطـار الذكريـات واسـتحضار سـيرة مدينـة عزيـزة فـي سـبيل البحـث عـن احمـد الصالـح مسـلحا بالامـل والرغبـة الاكيـدة وصـورة الصاحـب ومفتـاح صنـدوق الذكريـات الجميلـة والعديـد مـن الاشـارات و المؤشـرات الدقيقـة.. ذلـك لان مصيـر الروايـة ايـة روايـة هـو بحـث فـي بعـض التفاصيـل الصغيـرة لنسـتدل عـن طريقهـا علـى مـا هـو اهـم.. ذلـك أن "ميخائيـل باختيـن" يعتبـر الروايـة جنينـا، لـم يكتمـل بعـد، كجنـس أدبـي قائـم بذاتـه؟ طبعـا ليـس بالمعنـى التصغيـري أو التحقيـري؟ علـى العكـس مـن (الفـن الْملحمـي) ...

المكان في الطريق الى الملح

"بإمكان كاتب أن يُهدي مدينةً شُهرةً عالميّة من خلال كتاب" هكذا تقول احلام مستغانمي .. وفي اقصى الحالات الإجرائية تتحول العديد من الامكنة الروائية في وجداننا الى اماكن حميمية، و الكثير من الشخوص الى اصدقاء ملحميين حميمين من حيث لا نعلم و لا نحتسب كانما تربطنا بهم صلة قرابة قوية.. ونعشق عن طريقهم تلك الاعمال بعوالمها وامكنتها وافضيتها الصغيرة المحدودة المضغوطة بين دفتي الورق والموشومة بالحبر .. و التي تغدو افتراضيا اكبر من حجمها في الواقع.. وننسج معهم علاقات ضمنية اقرب الى الحميمية واقوى من الخيال.. من منا لم تشده قاهرة نجيب محفوظ، واسكندرون حنا مينا، واسكندرية ادوار الخراط ولورنس داريل، وبصرياثا محمد خضير، وسومر حسب الشيخ جعفر، وطنجة محمد شكري وبول بولز، ودبلن جيمس جويس، وبيونس ايرس خورخي بورخيس، وباريس بودلير، ولشبونة فرناندو بيسوا، وبراغ كافكا، واسطنبول باورهان باموك .. ويتجلى ذلك الارتباط عن طريقة حديثهم الاسطوري عنها في كل حين كرد فعل لتاثيرات بصمها ذلك المكان على ارواحهم، واصبحت قطعة من حياتهم.. يكتب كافكا في احدى رسائله لأحد أصدقائه: "لن تخلي براغ سبيلنا، لهذه الأم الصغيرة مخالب، ينبغي الإذعان لها ..." .

هكذا تخلق تلك الامكنة و الاشياء الحميمية في نفوسنا ذلك الفضول الآسر لاقتفاء آثارها خارج الحيز الورقي وتدفعنا لمتابعة تطورات الاحداث في رواية "الطريق الى الملح" عبر تتبع معاناة الانا والاخر.. "الانا" الراوي الذي ليس حتما الكاتب الذي يستلهم على مستويات عدة مرجعية السيرة الذاتية في تشكيل الخطاب الروائي.. و"الاخر" الذي يمثله احمد الصالح البطل الايجابي الذي يرمز في

بحثه الى الامل واللقاء والمحبة والبساطة وهلم جرا من تلك الاوصاف النبيلة النابعة من اعماق الارض الطيبة المحتضنة لامال واحلام الناس الطيبين..

رؤى حول الرواية

تبتدئ الرواية في منطقة تماس بين زمنين يمتزج عبرهما الماضي بالحاضر الذي يتولد من رحمه المستقبل.. زمن ماض يستدعي التاريخ والمعالم والذكريات والرؤى والاطياف والاخيلة.. و زمن حاضر يستحضر الرغبة في اللقاء ويستنطق السجلات ويتحرى فيهم عن مصير احمد الصالح في دواليب الادارات والدوائر الحكومية وعبر مساءلة رفاق السلاح .. والمستقبل الباسم لكن الضبابي في ظل الخطر الداهم الذي يتهدد البلد ..

الطريق الى الملح من نوع السهل الممتنع ببساطة توليفتها وهرمية نسقها المعماري .. ومؤثثة بالشعر والنوستالجيا والشوق والتشويق واللهفة والاكتشاف لتتبع مجرى نهر الرواية وتتبع مساره ليمضي بنا صعدا لاهثين لمعرفة النهاية الحتمية للاحداث.. واقتناص المصير الغامض لكن المشرق والايجابي للبطل الذي ينبعث من جديد عبر الطفل رمز التجدد والعطاء والاستمرارية والتجدد، وعبر الحكاية اللامتناهية، واغراء القارئ وايهامه باكتشاف الاوراق المرتقبة التي ستنطلق في الفضاء الكبير كسرب حمام "ص١١٢... والتي وعد بها – وهو من سيقترح ذلك بلسانه – في الجزء القادم من الرواية، كما يوحي بذلك آلبرتو مانغويل في أنه " يعرض أمام القارئ كنزا من الروايات في حالة جنينية، وبذورا لحكايات، ليست في حاجة لتنمو زيادة حتى تمتعنا وتدهشنا." وآخذا بقول احمد فؤاد نجم " عشقي للكلام غالب سكوتي وكرهي للسكات جالب شقاي".

قراءة في رواية العامري الطريق إلى الملح

عبد الزهرة لازم شباري/ العراق

على نـدرة الإنتـاج في القص الروائـي عند القاص والشـاعر عبدا لكريم العامـري فـأن المتتبـع الجيـد لا يفوتـه أن يضـع يـده مـدركاً لاكتشـاف كثيـر مـن الأسباب التـي تجعلـه مشـدوداً إلـى هـذا الكـم القليـلْ !

لكـن القـاريء عندمـا يسـتنفر عيـن الناقـد وهـو يقلـب صفحـات هـذه الروايـة الجميلـة ((الطريـق إلـى الملـح)) يجـد بعيـن لا تقبـل الجـدل ولا الملابسـة بـأن النبـوءة الواضحـة فـي روايـة العامـري خصوصـاً ، نبـوءة مـن النـوع التـي تدلنـا علـى الصـور الفنيـة الجميلـة وعلـى تجربـة لا بـل مغامـرة تتجلـى فيهـا صورهـا لحظـة انبعـاث مـا يسـتشـعر بـه الروائـي مـن إرهاصـات وقـت انفجـار

الحدث الذي قد يكون عصياً على التفتح لدى الكثير من الأدباء!!

فقـد أسـتطاع أن يوجـه عيـن روايتـه هـذه الوجهـة التـي يراهـا مناسـبة إلـى الحداثـة فـي تكوينـه الثقافـي والاجتماعـي ، وذوقـه الجمالـي للبيئـة التـي خـرج للتـو منهـا ، والتـي فارقهـا علـى مـا يبـدو مـن خلجاتـه التـي أوشـكت علـى احتـدام سيل الدمـوع المنهمـر مـن عينيـه !

فهـو علـى مـا أعتقـد والـذي يقـرأ روايتـه يـرى بوضـوح أن العامـري مشـبع بالمنـاخ التراثـي البعيـد عـن متنـاول الرائـي لعيـن الشـمـس ، والتـي إن حـدق فـي قرصهـا والشـعاع المندفـع منهـا لايـرى إلا دمـوع هـي الأخـرى تندفـع لسـد الطريـق فـي وجهتـه التـي يـروم السـفر إليهـا !

وهـذا مـا عكـس علـى أداء القـص لديـه ، بتحريـك لغتـه ومفـردات عناصرهـا علـى هـذا النحـو الـذي يلمسـه القـاريء .

في رائعته هذه ((الطريق إلى الملح))يختلج عنده نموذج الإنسان الصالح المحب للخير والطموح الذي يروم إليه بتوصيل

الخير لغيره ، وهو إذْ يرتاح بهذا العمل الذي يلهمه السرور والراحة كلما يأوي إلى فراشه ليلاً بعد عمل يوم مضني فيه !!

أو أكثر بعداً من هذا إذْ يرى القاص المبدع كائن عربي مشرق ومتألق أنتج بعمله هذا حضارة واسعة ونشر من بين أصابع كفيه ثقافة مرحلة كاملة ، كما تتسرب حبات القمح من بين يد الفلاح وهو ينشرها على الأرض المعدة للزراعة !

لتأوي على كنفها سيقاناً تحمل سنابل الحياة ، وهذا ما أراه ويراه غيري النموذج الأصلي الذي يحبو إليه القاص بصدق انتمائه للأرض والوطن والحرية والإنسان بمستواه الحضاري والسياسي !!

وما أختاره القاص هنا وما يريده هو العلاقة الوطيدة التي تربطه مع الأرض من جهة ، وبين العالم من جهة أخرى .

هذه الرابطة التي أمضى العامري عقوداً من حياته وخاصة عمره الذي بدءه بالكتابة الأدبية في تأسيسها وتثمينها محافظاً عليها من الانكماش والتردي ومغالاة الآخرين وهراوات القمع وقبح العالم !!

وإذا كان هذا الرأي هو حصيلة كل أديب يرى في هذه العلاقة مادة ورابطة حساسة ومهمة ، فالنشهد للعامري بهذه الخصوصية ، لأنه من اللذين أخلصوا لها بكل تعقيداتها ونتائجها ،

وهذا ما نلمسه من خلال معايشتنا له وقراءتنا لما يكتبه في قصصه ورواياته وحتى قصائده التي تدل على عمق هذه العلاقة

التي يعتبرها العكاز الذي يتحسس به الأرض قبل أن تطأ قدماه .

والقصة أو الرواية إن لم يكن كاتبها مرتبط بهذا الإحساس ومنبعث من خلجات هذا التوجع والقهر لا يمكن لها أن تقف على قدميها ، ولا يمكن أن تعطي ثمارها للقارئ المتتبع لأحداثها !!

والعامـري يمتـاز بنمـط سـير القـص عنـده ببحثـه الدائـم عـن السـياقات المختلفـة مـن عيـن كتـاب جيلـه القصصـي وعلـى وجـه الدقـة للاختـلاف الفنـي والجمالـي الـذي يبديـه الكاتـب فـي التوغـل داخـل مسـارات قصتـه المنشـودة !

فهـو لـم يؤخـذ بهـم ، ولـم ينـزل إلـى خطـاب القـص لديهـم ، لكنـه يترفـع عاليـاً محصنـاً تجاربـه مـن شـوائب الآخريـن !

فهـو يتفنـن فـي بنـاء صـور النـص بحيـث لا يمكـن للمتتبـع تجاهلهـا أو الابتعـاد عنهـا بفكـره ، حيـث تنغـرس تمامـاً فـي مخيلـة القـاريء وتأخـذه إلـى حـد التكلـف فـي مسـارات الحـدث المرسـوم ، وحيـث أن الكاتـب يعقلـن الإحسـاس أو يهنـدس نـار المخيلـة بسـبكه المتيـن فـي الحـدث الـذي يـروم السـفر بيـن خلجاتـه .

فهـو علـى مـا أعتقـد يريـد بهـذا النـص أن يفلـت مـن قيـد الزمـن ويطـل بوجهـه علـى المسـتقبلْ !!

فـي البـدء يذهـب العامـري بفكـره الروائـي المتجـدد إلـى الأرواح التـي لا زالـت تحلـق فـي فضـاء مدينـة الفـاو وأرضهـا التـي كانـت مسـرحاً للقتـال يـوم ذاك فهـو لا يـزال محلقـاً بروحـه وأحاسيسـه وكأنـه يعيـش معهـم وهـم يعانـون أللألـم والمـوت ، حيـث يبـث آلامـه وإهـداء روايتـه هـذه إلـى تلـك الأرواح التـي يراهـا عائمـة فـي فضـاء مدينتـه التـي تركـزت بـكل آلامهـا ومآسيها وتشـرد أهلهـا مـن مآسـي الحـرب ، الحـرب التـي طالـت كل شـيء والتـي لـم يسـلم مـن كيدهـا أحـد حتـى طالـت النخيـل الشـامخة بقاماتهـا فقطعـت رؤوسـها وتركتهـا أعمـدة لا روح فيهـا ، فهـي كالأشـباح التـي فارقتهـا الحيـاة وسـكنت أرواحهـا الشـياطين وهـي واقفـة تستسـلم للسـكون المخيـف الـذي خلفـه المـكان عليهـا!!

والـدرب الـذي سـلكه العامـري فـي طريقـه إلـى الملـح علـى مـا يبـدو كان طريقـاً يحمـل آثـار الطفولـة والحيـاة السـعيدة والقاسـية فـي آن واحـد ، كان يعيشـها وقومـه فـي منطقتـه حـوز الجبيلـة مـع صديـق العمـر الـذي عاصـره

جل حياته وهو أحمد الصالح ، الذي أفحمت الرواية نفسها بالتحدث عنه وعن أعماله الشيطانية التي يقوم بها ، حتى خيل للجميع أن يسمونه ((الجني))

أعماله هذه التي تسيء البعض وتضحك البعض الآخر ، أحمد الصالح هذا على ما يبدو منقطع الأهل والعشيرة حيث تربى منذ طفولته في هذه القرية التي أحبته وعطفت عليه ، حتى أصبحت هذه المدينة تعيش معه في كل جوانحه ، وكل تفكيره ،

فهو يتيقن تماماً لو أن ملك الموت داهمه في مكان غيرها سيطلب منه أن يقبض روحه في مدينة الفاو الحبيبة على قلبه ، وهكذا عاش هذا الجني مع مدينته التي أحبته هي الأخرى وقومها ، ويخيل لقاريء هذه الرواية الجميلة التي يتحدث بها العامري عن صاحبه أحمد الصالح والذي سار أسمه سير الحروف وهي تصف أعماله وأفعاله ومرضه وغيبته وتعلمه الأشياء وهو في دكان الحداد ، وانصياع الحديد لأرادته وعلمه ، حتى خيل للكاتب كما يقول ... يوم ذاك سألته عن الأشكال التي يصنعها من قطع الصابون والتماثيل التي تتراءى لي وهو يضعها أمامه على رف له .

كيف لك أن تقوم بهذه الأعمال يا أخي ؟

فرد علي بقوله البديهي ((ليس هناك مستحيل أمام الإنسان كل أمريء بداخله قوى إذا ما أستنطقها سيكون العالم طوع يديه !!))

وهكذا يستمر العامري بإقحام ذاكرته والتحدث عن صاحبه وما يمر به من أحداث وقصص حتى إلتحاقه بالخدمة العسكرية وترفعه فيها ثم اختفاءه عنه وابتعاده لأيام وشهور وهو الذي لا يفارقه أبداً , حتى بدت الحرب وتناثر أهل مدينته بالهجرة إلى مدن أخرى وإلى مناطق أخرى بعيدة عن مرمى المدفعية والقتال وهم يذرفون الدموع وكأنهم يودعون أفئدة لا زالت مرتبطة بغطاء المدينة ، تاركين الشيخ عارف وهو أحد كبار المدينة الذي أبى ألا أن يغادر منزله ومدينته

التـي تربـى فيهـا وأكل مـن لحمهـا وشـرب مـن دمهـا ، متفائـلاً بانتهـاء الحـرب ورجـوع الأمـور إلـى وضعهـا الأول ، ولكنـه بـدء يعـد الأسـبوع الأول فالثانـي والثالـث والرابـع ولكـن دون جـدوى !

حيث بـدأت نبوءتـه تخفـت ويتـراءى لـه اليـأس ويضعـف جسـمه ، يتمتـم بكلمـات يعقلنهـا الكاتـب في روايتـه وهـو يقـول ((كـم هـي قاسـية الحـرب لا توقـر كبيـراً ولا تعطـف علـى صغيـر))

وهكـذا وفـي أحـد وحـدات الميـدان الطبيـة يلفـظ شيـخ عـارف بقايـا أنفاسـه وعينـاه مفتوحتـان وكأنهمـا تودعـان المدينـة التـي أحبهـا ،

لكـن العامـري كان يـراه فـي كل ليلـة يأتـي علـى حصانـه الأبيـض وهـو يـدور فـي الأزقـة القديمـة ، ثـم يعـود مـع أول خيـط للفجـر إلـى قبـره ليرقـد بسـلام !!

وبموتـه تفـرق مـا تبقـى مـن العوائـل تاركيـن منازلهـم إلـى أماكـن أخـرى وكأن موتـه تأشيـرة الرحيـل إلـى الديـار البعيـدة !

وظـل العامـري يؤطـر حروفـه بوقائـع مميـزة وحـوادث ذات طابـع لمسـها كل أبنـاء شـعبه فـي العـراق علـى طـول خـط الحـرب المفتعلـة ، لأنهـاك قـوى الشـعبين المسـلمين !

وهـو لا يـزال يبحـث عـن صاحبـه الـذي أحبـه وأفنـى عمـره بحفـظ ذكرياتـه فـي صندوقـه الحديـدي ، يتلـو آيـات الحـب الدفيـن علـى الأصـوات المنطلقـة مـن كل مـكان ، حتـى أرتطـم سـمعه ذات يـوم بنـداء أحـد الأمهـات وهـي تنـادي ولدهـا الصغيـر باسـم أحمـد الصالـح !!!!